قصص العروج

الطبعة الأولى
1446 هـ
2025 م

اسم الكتاب: قصص العروج
التأليف: أ.د. فـؤاد البنـا
موضوع الكتاب: قصص القرآن
عدد الصفحات: 216 صفحة
عدد الملازم: 13.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 17x24
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2025 / 3155
الترقيم الدولي: 978 - 977 - 8796 - 29 - 2

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01012355714 - 01152806533

قصص العروج

تأملات تدبرية لقيم حضارية في قصص القرآن الكريم

أ.د. فـؤاد البنـــا

دار البشير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي أنزل القرآن بالحق، وجعله مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه حتى قيام الساعة، والصلاة والسلام على من قال له ربه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩].

أما بعد:

فلقد ختم الله سلسلة الرسالات السماوية برسالة محمد ﷺ الذي تنزَّل عليه أعظم كتاب جمع الله فيه بين الهداية والإعجاز، وجعله عاما لكل الناس بمختلف أعراقهم وألوانهم وطبقاتهم وظروفهم: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وجعله مشتملاً على كل ما تحتاجه عمارة الأرض وصناعة الحياة، من قيم وأخلاق راقية، وتشريعات ونظم محكمة، وآداب وذوقيات رفيعة، وأودع فيه كل ما يضمن لبني الإنسان الهداية من ضلال، والعلم من جهل، والتقدم من تخلف، والعصمة من تفرق، والرشد من غيّ، حيث صاغه بطريقة معجزة مكّنته من الجمع المتضافر بين سائر عوامل الهداية وأسباب السعادة وقيم العروج الحضاري، رغم حجمه الصغير وكلماته المحدودة، ولقد أنبأ الله رسوله محمدا ﷺ بهذا الأمر فقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]؛ ذلك أن الجزئيات تدخل تحت إطار الكليات، والفروع تنضوي تحت عناوين الأصول، والوسائل تنضبط في إطار المقاصد. وهذا يعني أن القرآن بيّن كافة الكليات والأصول والمقاصد، داعيا العقل المسلم للاجتهاد في المتغيرات على ضوء الثوابت.

إن من يتأمل القرآن الكريم سيجد أن الله قد أودع فيه جميع القيم والهدايات التي أراد لها أن تسود حياة المسلمين بدلا عن القيم والأهواء والأعراف الجاهلية، وذلك

باستخدام أساليب عديدة، ومنها أسلوب إيراد القصص التي تختزل الكثير من المعاني وتكتنز العديد من القيم التي تدخل ضمن عوامل العروج الحضاري بمعناه الشامل، مستهدفةً إيصال المسلمين إلى مقام الشهود على الناس، إن استوعبتها عقولهم وتمثّلتها أفكارُهم، وأحسنوا تنزيلها على ظروفهم وتطبيقها في واقع حياتهم، كما حدث من قبل في أزمان وأماكن عديدة، ولا سيما في عصر صدر الإسلام، حيث كان الصحابة هم المثال الأبرز، مما جعلهم نموذجاً للتأسي في طريقة فهم تلك القيم ومعايرتها على الواقع عبر فقه التنزيل، وفي تطبيقها على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم وصولا إلى اعتلاء ذروة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ [آل عمران: ١١٠].

ومن هنا فقد أخبر الله جل جلاله نبيه محمدا ﷺ بأن الغاية من إيراد تلك القصص في القرآن هي التفكر فيها لاكتشاف الأسرار الثاوية في نصوصها المعجزة، واستخراج الهدايات الكامنة في خبايا الآيات، فقال تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ومن دون طاقة ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ التي وردت بصيغة المضارع لتفيد الديمومة والاستمرار؛ فإن لآلئ الدروس ستبقى حبيسة في أصداف الآيات.

ولقد أوضح القرآن أن قصص الأولين التي أوردها في ثنايا آياته، قد احتوت على مواقف الاعتبار التي ينبغي أن يستخلصها المؤمنون من تدبراتهم العقلية، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١]، وكأن إفراد كلمة ﴿عِبْرَةٌ﴾ رغم أن المقام مقام جمع، كما يتضح من كلمة ﴿قَصَصِهِمْ﴾، إنما هو إشارة إلى أن السنن الاجتماعية والخطوط العامة التي تقف خلف الأحداث والتفاصيل إنما هي واحدة ولا تتبدل، مهما اختلف الناس وتغيرت الأزمان وتبدلت الأماكن.

وفي سياق إيراد القرآن لقصة خيانة بني النضير للصحابة الكرام ومحاولة التجبر على المسلمين ثم سقوطهم المدوي في خندق خيانتهم، جاء الأمر الرباني للمؤمنين والممتد إلى قيام الساعة، بالقول: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، وقد جاء هذا الأمر في أول آية من الآيات التي أوردت قصة أولئك اليهود، وكأنها تقول شغّلوا مدارك عقولكم للبحث عن الدروس واستنباط العبر الثاوية في القصص، فهي الغاية

من إيراد تلك القصة وكل قصص القرآن؛ لأنه في الأصل كتاب هداية، كما قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١].

وفي هذا الكتاب محاولة جديدة وجادة لقراءة قصص القرآن الكريم بروح عصرية، تستهدف الإسهام في معالجة أسقام التخلف الماحق وإصلاح فتوق الواقع المتردي، باستخدام منهج استنباطي تحليلي يتكئ على منهج التدبر القرآني عند الرسول ﷺ وصحابته الكرام، والذي تدلت ثماره الجَنِية خلال قرون الخيرية الثلاثة بصورة سافرة، مع التزام صارم بقواعد وأساليب اللغة العربية التي تنزّل بها القرآن، ولا شك بأن هذه التدبرات تتمحور حول ما يمكن تسميته بالقيم الحضارية في الإسلام والتي لا تنفك أبداً عن المقاصد العامة للشريعة الإسلامية.

لقد حاول كاتب هذه التأملات الجديدة أن يعتصر خبرته في مضمار تدبر القرآن، بمنهجية مختلفة عن ما تقوم به كتب التفسير التقليدية، حيث اختار قرابة مائة عنوان، ووضع تحتها مئات العناوين الجزئية التي تتضافر مع بعضها لتؤكد أن القرآن يمتلك إمكانات الخلود وقدرات التنزل المتجدد، من خلال انسكاب معانيه وإشاراته التي تجيب عن أسئلة العصر، وتبحث عن مخارج لمآزق الواقع، وتستخلص أدوية لمعضلات الناس، مع التزام صارم بالاختصار وميل واضح إلى استخدام أسلوب أدبي منضبط، بحيث تجتمع له ثنائية الإقناع والإمتاع بقدر المستطاع.

فإن تم النجاح في إصابة الهدف وتحقيق الغاية، فلله الحمد والمنّة فهو الهادي والموفق والمعين، وإن كان غير ذلك فإني أستغفر الله وأتوب إليه وأسأله أن يأجرني مقابل الجهد المبذول والمقصد الحسن.

أ.د. فؤاد البنا

مدينة تعز، ٩ رمضان ١٤٤٣

١٠ أبريل ٢٠٢٢م.

مقاصدُ القصص

• استثارةُ العقول:

يستهدف القرآن استثارة العقل واستفزاز الوجدان في كل نصوصه، بما في ذلك القصص، قال تعالى: ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

إن المقصد الرئيسي من إيرا القصص هو إيقاظ العقول، فبدون انتباه خلايا المخ واستيقاظ مدارك العقل لن تتحقق مقاصد القصة القرآنية، وهذا الأمر ليس عابراً بل هو عملية طويلة الأمد، ولذلك استخدم القرآن الفعل المضارع: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الذي يفيد الديمومة والاستمرار.

• القصصُ الحق:

وصف اللَّه قصص القرآن بالحق: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّ ﴾؛ إذ أنه يبين كيف تنسلك السُّنن في الواقع، وكيف يعانق الرجال الحق ويرفعون لواءه، وكيف يتعرض أهل الباطل للمحق والهلاك مهما طغوا وبغوا.

لكن الذي يقرأ قصص القرآن بغير تدبر يحيلها إلى مادة تجافي السُّنن كمن يُقصّر في تربية زوجته وأولاده، بحجة أن ابن نوح وزوجه وامرأة لوط كانوا من الهالكين، حيث يترك القواعد ويلجأ إلى الشَّواذ، يهمل الأصل ويستدل بالاستثناء؛ من أجل تبرير تقاعسه وتقصيره.

• خلائبُ الاعتبار:

جاء قصص القرآن الكريم ليوقظ كوامن التفكر ويوقد مشاعل الاعتبار، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وقال: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١]، وبذلك فإنهم يحصدون خلائب التفكير وثمار الاعتبار؛ ولا شكّ أن خلايا العقل إذا استيقظت نامت الخرافات وذبلت الأهواء!

• استنباط العِبَر:

في سورة الحشر أورد القرآن قصة بني النضير الذين دفعهم الغرور للظن بأن حصونهم مانعتهم من الله، حيث أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، وأمر تعالى المؤمنين بأخذ العبرة فقال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾؛ إذ أن اقتراف نفس المقدمات يجلب ذات النتائج.

* * *

أفياءُ الأنبياء

• منازلُ الزمان:

يصبح الزمان جميلاً أو قبيحاً بقدر جمال أو قبح الناس، وتصير القرون خَيِّرة أو شرِّيرة بقدر غَلَبة أهل الخير أو أهل الشر عليها.

ولأن القرون تكتسب أخلاق الناس الذين يعيشون فيها، فقد أطلق القرآن مصطلح القرون على الأجيال التي تسكنها كأنها منازل، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾، أي الأجيال التي ظلمت وكفرت بعد نوح، ومما يؤيد أن المراد بالقرون الأجيال قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾، أي انشأنا من بعد تلك الأجيال أجيالاً أخرى، وقاله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾، أي من جيل، فالقرن لا يهلك فهو مجرد منزل إن ملأه ساكنوه بالشر أهلكهم الله فتهدّم منزلُهم معهم !

• محاربةُ التّطفيف:

منذ بزوغ شمس الإسلام في أرض الناس وهو يحارب التطفيف الحضاري، بكل أبعاده المُنبثّة في سائر مجالات الحياة.

فقد حارب إبراهيم التطفيف العقَدي وشنّ الغارة على الأصنام وسفّه أحلام عُبّادها!

وحارب موسى التطفيف السياسي، حيث تصدى للطغيان الفرعوني، وطالب بإطلاق الحرية لبني إسرائيل: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧].

وحارب شعيبٌ التطفيف الاقتصادي، قال تعالى على لسانه: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ..﴾ [الشعراء: ١٨٠-١٨٣]، ووقف لوط بالمرصاد للتطفيف الأخلاقي، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ

لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ... ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٢٩]، وعمل بكل ما أوتي من قوة من أجل تجفيف مستنقعات الفساد الأخلاقي التي غرقوا فيها.

• تحقيقُ وعد اللّه:

لقد وعد الله الأنبياء بإهلاك الظالمين من أعدائهم، وأن يورثهم الأرض بدلاً عنهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٣ -١٤].

وكان أن سعى الأنبياء لتحقيق هذا الوعد لهم والوعيد بأعدائهم فقال القرآن مباشرة: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي أن الأنبياء طلبوا الفتح من الله وسعوا إليه بالأخذ بأسبابه كما هو معلوم عنهم، فتحققت النتيجة، حيث خاب الجبارون العنيدون.

ونلاحظ في الآية الأولى تملّك الكافرين للوطن: ﴿أَرْضِنَآ﴾ وللدين: ﴿مِلَّتِنَا﴾، إذ أنه ليس للأنبياء والصالحين شيء من ذلك في عرفهم، وما زالت القصة تتكرر في كل زمان ومكان!

* * *

أُنداءُ الأنبياء

• الحسُّ التجاري عند الأنبياء:

كان الأنبياء بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، بل وكانوا يمارسون مهناً متعددة يقتاتون منها ومن فوائدها يتصدقون، ومنها مهنة التجارة.

ومن يتدبر قصص الأنبياء يلاحظ لمحات تدل على حسهم التجاري العالي، ومن ذلك أن يعقوب عندما طلب أبناؤه اصطحاب أخيهم الأصغر شقيق يوسف للاتجار في مصر قال لهم: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، وعندما قالوا له: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ [يوسف: ٦٥]، سلّمهم إياه!

وفي قصة موسى مع شعيب عندما عرض عليه الزواج بابنته طلب شعيب من موسى، أن يعمل عنده ثماني سنوات كمهر لابنته، وطمع بالمزيد فقال: ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧]، وكان عدد من الأنبياء يمارسون التجارة ومنهم محمد ﷺ الذي اتّجر بمال خديجة، وكانت شطارته التجارية جزءً من شخصيته التي انجذبت إليها!

• دنيا الأنبياء:

إن الذين يذمّون الدنيا بدون علم، داعين إلى تخريبها حتى تتم عمارة الآخرة، هؤلاء لا يعرفون منهج القرآن، ولا يفقهون قصص الأنبياء العظام.

فقد عاش نوح قرابة ألف عام في هذه الدنيا يتقلب بين ابتلاءات نفعها وضرها، حلوها ومرها، وطلب يوسف المُلك، لكنه جعله في يده لا في قلبه، فانتصر للحق وخدم الخلق، وظل موسى عشر سنوات يعمل عند شعيب مهراً لابنته التي تزوجها منه، وداود كان ملكاً، وسليمان دعا الله أن يعطيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأقام محمد ﷺ دولة صار قائدها، وكان يتمتع بطيبات ربه، فيأكل اللحم ويشرب العسل، ويلبس أفخر الثياب ويتطيب بأفخم العطور، ويتزوج النساء.

• الاستمتاع مهما كانت الظروف:

مهما كانت الظروف صعبة والأوضاع سيئة، فإن الحياة ينبغي أن تسير وفق المعتاد، كالأكل والشرب، وينبغي التركيز على النصف الممتلئ من الكأس والاستمتاع بما هو متوفر، كما أمر الله مريم بأن لا تحزن وأن تنظر إلى النهر الذي يجري تحتها، وأن تأكل وتشرب وتستمتع بما أعطاها الله من نعم، قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ... ﴾ [مريم: ٢٤ - ٢٦]، ولنلاحظ هنا كيف نهاها عن الحزن لافتاً نظرها إلى النهر الذي يسري من تحتها، كأن في النظر إليه جلاءً للحزن وذهابا للكَرْب!

* * *

خلائقُ الأنبياء

• منجزاتٌ سببية:

لقد انطلق سيد البشرية محمد ﷺ من الفرش إلى العرش، حيث تبوأ مكان الشرف العالي واعتلى ذروة الرسالات، وذلك عبر المكابدات والمجاهدات حتى قال له ربه: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴾.

إنه لم يصلِ إلى تلك القمة السامقة بالمعجزات القدَرية بل بالمنجزات السببية، حيث رسم الخُطط وأعد العُدد، وكان أن اجتهد وجاهد، ودأب وثابر، دون أن ينتقص ذلك من إيمانه وتوكله أو ينال من اعتقاده ويقينه بالله.

لقد وجده الله في الأوامر والنواهي بالغاً ذروة الإجادة ومرتقياً قمّة الإحسان فآزره وناصره، وهذا ديدنه مع كل من لم يجدهم عند النواهي ولم يفتقدهم عند الأوامر: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾، فكيف بالحبيب محمد الذي كان للتقوى بيرقاً وللإحسان عنواناً ؟!

• أكرم الخلق:

كان ﷺ أكرم الخلق في عطاياه المادية وفي مِنَحه المعنوية، ومن يقرأ سيرته الشريفة يتعجب إلى حد الذهول ويندهش إلى حد الانبهار، فمن أي الخزائن كان يمنح؟ ومن أي العيون كان يَمتحُ ؟!

لقد كان يمنح من خزائن الوهاب الرزاق التي لا تفرغ، وكان يمتح من عيون الهداية الإلهية التي لا تنضب، ولم لا يكون كذلك وقد عظم اللَّه خُلقه فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ؟، ولم لا يصبح هكذا وقد جعله اللَّه رحمة للخلائق كلها فقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾؟!

• الأدبُ الموسوي:

كان موسى شديد التأدب مع اللَّه في كل أحواله حتى قبل نبوته، وكان أشد ما يظهر هذا الأدب عندما يقف في باب اللَّه ، عارضاً ضعفه وفقره وطالباً من ربه المعونة والمدد.

وفي دعائه لربه في مدين تجسيد رائع لهذا الأدب الرفيع، فقد قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، حيث قدَّم ربه على نفسه في هذا الدعاء القصير ثلاث مرات:

الأولى: عندما خاطبه: ﴿رَبِّ﴾، قبل ذكر نفسه: ﴿إِنِّي﴾.

الثانية: إشارته إلى رزق اللَّه ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ قبل ذكر ﴿إِلَيَّ﴾.

الثالثة: ذكره لـ ﴿خَيْرٍ﴾ اللَّه قبل ذكره لكونه ﴿فَقِيرٌ﴾ !

ولاحظوا مرة أخرى أن هذا الأمر حدث منه ولّما يصبح نبياً بعد!

• شجاعة الداعية:

الداعية إلى اللَّه شخص شجاع ولاسيما في المَحكّات العملية أمام الأعداء، فمهما ادْلَهمّت الخطوب وفاجأته الحوادث فإنه يتماسك وينتصر على خوفه.

ولقد كان كل الأنبياء شجعاناً، والموقف الوحيد الذي قرن القرآن فيه الخوف بنبي كان في سياق الحديث عن قصة موسى مع سحرة فرعون، وذلك عندما رموا بحبالهم وعصيّهم وسحروا أعين الناس حتى خُيّل لموسى نفسه أنها تسعى.

في هذه اللحظة داهمته مشاعر الخوف الطبيعية كما قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾، ولكن التمعن في الآية يشير إلى أن موسى لم يتخلّ عن رباطة جأشه، حيث كان الخوف مجرد توجس في النفس لم يسمح له بأن يطفو إلى شخصيته الظاهرة، ومن ثم لم تظهر عليه علامات الخوف أمام فرعون وسحرته، بل كتم خوفه وبقي ظاهر الشجاعة.

رياحينٌ نوح

• حياد الزمن (التفاؤل):

من الرياحين التي نَشْتَمّ عبَقها في قصة نوح، أن الزمن محايد وأنه خيرٌ في الأصل، وأننا ينبغي أن نتفاءل بأن أجمل الأيام هي التي لم تولد بعد.

نستنبط هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. فقد استخدم القرآن مصطلح سَنَة في ما يخص السنوات التي قضاها نوح من عمره؛ لأنها كانت سنوات تعب ونصَب، وجعل المستثنى خمسين عاماً وهي التي لم يعشها نوح بعد، وكأن الآية توحي بالأمل وتسير على الأصل؛ لأن الأعوام تحمل معنى الخير مقابل حمل السنوات لمعنى الشر، كما يبدو من استقراء آيات القرآن ذات الصلة.

ومن يدري ربما عاش نوح في قومه بعد هذا الطوفان خمسين عاماً.

• تطويل الشكر للعُمر:

يبدو أن الشكر من مُطيلات العمر، ذلك أن الشاكر يستنزل بشكره المزيد من النعم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولن تموت نفس قبل أن تستكمل ما كتب الله لها من مِنَن وآلاء.

استنبطتُ هذا المعنى من قصة نوح عليه السلام الذي كان أطول الأنبياء عمراً وهو الذي امتدحه الله قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

• عدم التعصب للصالحين:

تُعلِّمُنا قصة نوح أن المؤمن الحق لا يتعصب للصالحين إلا بما علمه عنهم علم اليقين، وأنه يصبر ويحلم على الجاهلين والفاسدين قدر مستطاعه، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١١٢ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١١ - ١١٣]، فلم يقل لهم إنهم غير أراذل، بل نفى علمه بما يعملون، وبجانب ذلك فقد رد على هؤلاء السفهاء رداً جميلاً.

* * *

لَطائفٌ نوحية

• أهليةُ الصلاح:

لقد علّمنا القرآن في قصة نوح درساً بليغاً وهو أن أهل المؤمن إنما هم الصالحون، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٦]، ومن المعلوم أن من نجوا هم من آمنوا ولم يكن بعضهم من أقاربه، بينما هلك مع الهالكين اثنان من أقرب الناس إليه وهما ابنه وزوجته !

وعندما انبعثت عاطفة الأبوة وهو يرى ابنه على وشك الغرق وقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥]؛ نفى الله أن يكون ابنه من أهله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ..﴾ [هود: ٤٦].

وهكذا فإن دائرة الأهل تقاس بالقُربات لا بالقَرابات، وبالتقوى لا بالدم، وقد أعطى هذه الحقيقة صكّ الصلاحية إلى قيام الساعة خاتمُ النبيين محمد ﷺ عندما قال عن سلمان الفارسي: «سلمان منا آل البيت»، وليس صدفة أن يقول ﷺ ذلك عن سلمان بالذات إذ كان يمكن أن يقول ذلك عن صهيب الرومي أو بلال الحبشي، لكنه كان مقصوداً لأن الفرس كانوا أعدى أعداء العرب، وبذلك يتضح أن أواصر الإيمان أجلّ من أواشج القربى!

• رَويَّةُ المصالح الفاسدة:

في كل الدعوات يكون الضعفاء والفقراء أسرع إلى الاستجابة من الأقوياء والأغنياء، ذلك أنه لا يوجد ما يمنعهم من الاستجابة السريعة، بينما يطيل الكبراء التفكير ويَتروّون حتى لا يفقدون ما اكتسبوا من مصالح غير مشروعة.

وفي هذا الإطار تحجّج الملأ من قوم نوح لعدم اتباعه بقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧]، **أي**: بمجرد ما دعوتهم

استجابوا لك من غير رويَّة ولا تفكير، ولذلك اعتبروهم من الأراذل وفْقَ مقاييسهم المادية المنتكسة بل وطلبوا منه طردهم!

وفي قصص إسلام الصحابة كان المستضعفون يسلمون سريعاً، بينما ظل الكبراء يترددون ويطيلون التفكير ما عدا أبا بكر الصديق، فقد كان تاجراً كبيراً ومع ذلك لم يتردد لوهلة عن تصديق محمد ﷺ والإيمان به، وهذه مزيته الكبرى التي نوّه بها ﷺ عندما قال: «**ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، غير أبي بكر، فإنه لم يتلعثم**» !

• التقرُّبُ بالشرك:

عندما تنصرف العناية من الأفكار إلى الأشخاص وينتقل الاهتمام من الصلاح إلى الصالحين، فإن البيئة تصير حينئذٍ خصبةً لاستزراع آفات الصنمية، أما إذا انْضاف الجهل إلى تلك الشخصانية؛ فإن الصالحين يصيرون أصناماً في مثل هذه البيئات!

ومن يعرف قصة قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]، يدرك ذلك، فقد كانوا أناساً صالحين فأحبَّ ساذجو الصالحين أن يُخلدوا ذكراهم حتى لا تنساهم الأجيال القادمة، فجاءت أجيال لا تمتلك من العلم شيئاً، وجعلت من تماثيل هؤلاء الصالحين أصناماً تُعبد ليقربوهم من اللَّه زُلفى !

• بينَ الأسباب والأسرار:

عندما نخرج من (أسباب عالم الشهادة) إلى (أسرار عالم الغيب)؛ تصبح السفينة الخشبية أقوى من الجبل الصلب، فقد غرق ابن نوح مع الجبل الحجَري الذي اعتلاه، بينما نجا الذين ركبوا السفينة الخشبية وهي تجري بهم في موج كالجبال !

ولا يزال المؤمن الحق يجمع في إيمانه بين الأسباب والأسرار.

* * *

نَفَحاتٌ نُوحية

• عدمُ استطالة الزمن:

يظن البعض بأن نوحاً قد استطال الزمن الذي ظل يدعو فيه قومه، فدعا عليهم بالهلاك، والحقيقة أنهم هم من استطال زمن الدعوة حتى قالوا له: ﴿ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [هود: ٣٢] ولاحظْ هنا جملة: ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾، ورغم توريث الكفر من الآباء إلى الأبناء حتى أنهم لم يلدوا إلا فاجراً كفاراً؛ فإن نوحاً لم يدعُ عليهم إلا بعدما نزل إعلام علّام الغيوب بقوله تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَـِٔسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود: ٣٦].

ومما يؤكد أن نوحاً رغم مرور قرابة الألف سنة على دعوته لم يزل رحيماً بقومه حريصاً عليهم، قوله تعالى: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧]، فقد كان الله يعلم أن في قلب نوح حدبا على قومه ورحمة بهم، حتى أنه سيدعو الله من أجلهم.

• لا رضوخ لمعايير الجاهلية:

وفقاً للمعايير الجاهلية المأخوذة من مادية التراب، فإن الأشراف هم الأغنياء الأقوياء وأصحاب السلطة والجاه، غير أن معايير الإسلام هي الإيمان والتقوى وهي العلم والأخلاق.

وعندما اعترض قوم نوح على الإيمان به، باتباع الأراذل له وفق مقاييسهم المُنْحطّة: ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١]، لم يخضع نوح لمعاييرهم لكنه حدّثهم عن معيار الله وهو معيار العمل، فقال: ﴿ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١٢]، بل وردَّ الحساب إلى اللَّه وليس إلى الناس: ﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء: ١١٣ - ١١٥].

• سفائنُ النجاة:

لا تنفع الدعوات القولية ما لم تكن مصحوبة بالأفعال ومتسلحة بالأسباب، فهذا نوح عليه السلام عندما دعا ربه بعد ألف سنة من الدعوة قائلاً: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٧ - ١١٨]، أمره تعالى بالاستعداد العملي لتنزّل هذه النجاة فقال: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود: ٣٧]، ونلاحظ هنا تزواج العمل بالأسباب مع العناية الإلهية المباشرة: ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾، وغير المباشرة: ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾.

وهكذا فإن كل من دعا ربه بأن ينجيه من طوفان الفساد، عليه أن يصنع سفينة النجاة عبر ألواح العمل ومسامير الأسباب !

• النُّصح العطوف:

رغم شدة معاناة نوح، فقد ظل نصوحاً عطوفاً، قال تعالى على لسانه عليه السلام: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ.. ﴾ [الأعراف: ٦٢]، ولم يقل: «أنصحكم» بل: «أنصح لكم»، فهناك تظهر المواعظ الجافة والأوامر الصارمة، وهنا تظهر الدعوات اللينة التي تعمد إلى عدم المباشرة، وتخلط الموعظة بالحب، وتمزج الدعوة بإظهار الحرص عليهم والخوف الشديد مما يؤذيهم !

إن نوحا يستثمر فصاحته وبلاغته في الولوج إلى قلوبهم وإظهار شفقته الحادبة عليهم مما قد يُضيرهم في الدنيا والآخرة: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ .. ﴾ [الأعراف: ٥٩].

طوفانُ الأوزار

• آيةُ قومِ نوح:

إن العقل هو الفرقان بين اعتبارك بالآيات أو تَحوُّلك إلى آية للآخرين، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧] (وانظر الآيات: ٣٨-٤٠)، والتكذيب يكون في الأساس بالآيات التي جاء بها الرسل، ولذلك قال في الآية التي قبلها: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦].

وقد أثبتت صروفُ الدهر أن الذين لا يُعملون عقولهم؛ تفعل بهم أهواؤهم الأفاعيل، ولذلك عجَّب ربُّ العزّة رسوله من هذا الصنف من البشر، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وأكّد غياب الوعي عند هؤلاء فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، ثم ذكر عدداً من الآيات النفسية والكونية: [٤٥-٥٠].

وفي وسط هذه الآيات أشار الله إلى أن القرآن وسيلة أساسية في استنقاذ هؤلاء من أعاصير أهوائهم، عندما قال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

ولا شكّ بأن الأعمال الصالحة هي الفرقان بين أدعياء الإيمان وعباد الرحمن: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ثم أكد أن من أهم صفات عباد الرحمن ما يرتبط بتفعيل جهاز الوعي: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

• أمواجٌ الكفر:

عندما استنفد نوح وسائل التأثير على قومه، واستغرقت دعوته سائر الأوقات والظروف، دعا على قومه فاستجاب الله دعاءه، وعندما رأى الطوفان يتصاعد؛ تحركت عاطفة الأبوة في قلبه فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: ٤٥]، فقال له الله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ ..﴾ [هود: ٤٦]!

فلم يعد ابن نوح ابنه، بعد أن حالت بينهما أمواج الكفر، وكان من الطبيعي أن يُسدل الستار على هذه القصة بذات الطريقة، قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، ولا شك أن الجزاء من جنس العمل!

• انبعاثُ العَجَلة:

تظهر طبيعة العجلة في الإنسان في كل حال، وتنبعث في كل آن، لدرجة أن الكافرين أرادوا أن يلمسوا أثر الجزاء الإيماني على الفور عند المؤمنين حتى يُصدّقوا أن الرسل على حق !

وها هم الكفرةُ الغابرون يقولون لنوح ومن آمن معه: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]، أي لم تظهر لكم مزية بعد اتصافكم بالإيمان!

وما زال هذا الصوت يتردد في جنبات الدنيا إلى يومنا هذا، وسيستمر ما دام هناك إيمان وكفر!

* * *

هدايا هود

• فرائضُ الاستقامة:

إن الذين يسيرون في الطُّرق المعوجة والسُّبل المنحرفة لن يجدوا الله مهما فعلوا؛ ذلك أن الله كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦]، حيث يجده المرء في كل شعبة من شعب الإيمان، ولا سيما عند الضعفاء والمنكسرين من خلْقه، وعند الثغور التي لم تَلْقَ من يحرسها والحقوق التي لم تجد من يحميها، وعند فروض الكفايات التي باتت تشكو إلى الله الغُربة والهُجران !

لا يمكن أن يجد الله من يقتات الأماني ويعتاش على الأحلام، ولا من يلوك الشعارات الفارغة أو يؤدي الشعائر بدون روح، لن يجده إلا من ينغرس في جبهات العمل وينغرز في عرصات الدَّأَب، سيجده من يطوي المسافة بين مشاعره وشرائعه، ومن يردم الفجوة بين أقواله وأفعاله !

• شهادةٌ نسبية:

قد يكون هناك تشابهٌ بين الأسماء، ولكن سيظل البون شاسعاً بين المسمّيات، وذلك كمصطلح الشهادة الوارد في قوله تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [هود: ٥٦]، وسنلاحظ وعي هود الكامل بهذا الفرق، حيث قال: «واشهدوا» ولم يقل: «وأُشهدكم»، وذلك حتى لا يتوهم متوهم تشابه الشهادتين أو يظن جاهل وجود التشريك بين الشهادتين، فأين شهادة المطلق من شهادة النسبي ؟!

• تذكُّر الآلاء:

لا شك أن تذكّر الآلاء طريقٌ للفلاح، فقد قال هود لقومه: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]؛ ذلك أن تذكّر النِّعم والمِنَن يهدي المخلوق إلى خالقه، ويربط الضعيف بالقوي والفقير بالغني، ويدفع بالمحتاج إلى باب الملك المُتعال، وبذلك يتحقق الصلاح المنشود، ولا شكّ أن الصلاح أصل الفلاح في الدنيا والآخرة، ولذلك ظل الأنبياء والمصلحون يُذكّرون أقوامهم بآلاء ربهم، ومن قاموا بتذكر تلك النعم صنعوا لأنفسهم جسوراً عبَروا عليها إلى الفلاح.

* * *

خلالٌ الخليل

• عمومُ الرِّزق:

من ضمن دعوات الخليل إبراهيم لمن بعده ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة: ١٢٦]، حيث اشترط الأرزاق لأصحاب الإيمان، لكن الله عقّب عليه في ذات الآية فقال: ﴿ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

فقد أتاح الله الأرزاق للكافرين وأباح لهم التمتع بالخيرات، مثل المؤمنين، لكنهم سيدفعون ثمن كفرهم في الآخرة، حيث ستبدو قليلة مقارنة بما سيفوّتون في الآخرة من النعيم وما سيقعون في العذاب المقيم.

• البحثُ عن اليقين:

إن البحث عن اليقين مقصد من المقاصد العلمية للقرآن الكريم، وها هو خليل الله إبراهيم يطلب من الله أن يُريه كيف يُحيي الموتى، ويطلب كليم الله موسى من الله أن يُريه ذاته فيقول: ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولم يُعنفه الله ولم يزجره، بل أخبره بأن تركيبته البشرية القاصرة لا تحتمل رؤية ذي الجلال والكمال، ثم تجلّى للجبل فلم يحتمل!

وبالنسبة لإبراهيم عندما سأله الله كرد على طلبه: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ومما يؤكد أن البحث عن اليقين مطلوب، أن من وجّه هذين السؤالين اثنان من أولي العزم من الرسل، بل أحدهما يُلقّب بخليل الله والآخر بكليم الله !

• تواضعُ العلماء:

في قول إبراهيم لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ .. ﴾ [مريم: ٤٣]، دليل على اكتساب إبراهيم للمعرفة الحقيقية التي تجعل الإنسان يدرك أن خارطة العلم غير متناهية وأنه إنما أعطي بعض العلم: ﴿قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾، ولم يقل: قد جاءني العلم، ثم إنه قال: جاءني، أي بغير ذكاء مني، وإنما بتوفيق الله.

وهذا عين ما قرّره تعالى حينما قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

• صراطُ العلم:

إن صراط الهداية الذي يَعبر فوق بحار الضلالة وبحيرات الغواية، يتكون من حديد العلم وإسمنت الإخلاص.

ولهذا قال إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، فإنه عليه السلام قد جعل مبرر اتباعه هو العلم الذي جاءه، وثمرة الاتباع هي الهداية إلى الصراط المستقيم.

• اللّه أعلم حيث يجعل رسالته:

من يتمعّن في قصص النبيين والمصلحين؛ يجد أن الله يصطفيهم من أصحاب المعادن النفيسة، وهم الذين يمتازون بالعقول المفكرة والقلوب الرحيمة، ويتحلّون بمكارم الأخلاق وجميل الطباع، ويكونون من أصحاب الهَمّ والهِمّة.

وهذا خليل الله إبراهيم مثلاً قد قال الله عنه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١]، كأن (من قبل) تشير إلى ما قبل النبوة، بمعنى أن النبوة لا تحدث طفرة، ولكنها تتويج لمسلسل من التميز العقلي والسلوكي، وهذا ما رأيناه بوضوح في سيرة نبينا الحبيب محمد ﷺ والذي قال: « **أدّبني ربي فأحسن تأديبي** ».

وفي البيئات الصِّحّية ووسط الأُسَر الصالحة ينشأ الصالحون ويكثر المُصلحون!

أسْبابٌ إبراهيمية

• أجُورُ السُّنَن:

لما كانت حركة الدنيا تسير وفق نواميس منضبطة وسنن ثابتة، فإن الله قد جعل لكل سبب نتيجة حسنة أو سيئة، والنتائج الحسنة هي أجور يعطيها الله لمن أحسن استثمار الأسباب وتوظيف السُّنن، سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، ولهذا قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

أما الآخرة فهي دار جزاء وثواب، حيث تُضاعف الأجور بلا حساب، بينما في الدنيا هناك قدر من التكافؤ بين العمل والجزاء أو بين المقدمات والنتائج، ولذلك أطلق الله على الجزاء مصطلح (أجر) !

• استيفاءُ الأسباب:

في عالم الشهادة ينبغي للمؤمن أن يملأ كافة المساحات بالأسباب المطلوبة لتحقيق النتائج المنشودة، ولا ينبغي أن يدفعه إيمانه لترك فراغات للغيب دون تسبب، فهذا خليل الله إبراهيم بعدما عرف أن الملائكة ذاهبون إلى قوم لوط لإهلاكهم قال لهم: ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ [العنكبوت: ٣٢]، فحرصُه على استيفاء ما عليه؛ دفعه إلى قول ذلك، مع علمه أنهم مرسلون من قبل الله وأن الله بكل شيء عليم.

• أقدارُ الأسباب:

إن مراعاة الأنبياء للأسباب تأتي بسبب إدراكهم أنها من قدر الله.

ونرى مدى التزام الخليل إبراهيم بالأسباب في حواره مع الملائكة:

﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾، [الحجر: ٥٣-٥٤]، ولم يكن إبراهيم يائساً كما تشير الآيتان التاليتان للآية السابقة، لكنه أبان عن معرفة عميقة بطبيعة عمل الأسباب.

• مراعاةُ الأسباب:

لم يكن التوكل عند الأنبياء والعلماء ينتقص من أخذهم بالأسباب، وحتى عندما دعوا الله سبحانه وتعالى بأن يهبهم أشياء هي من المعجزات والكرامات الخارقة للأسباب والقوانين والعادات، فإنهم يستغربون عندما تحدث، كما قال زكريا: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

* * *

دعَواتٌ إبراهيمية

• أهميةُ الحُبّ:

الحُب يحقّق الخوارق ويصنع المعجزات، حيث يؤلف بين القلوب ويَجمع بين الأرواح، يقيم أواصر التلاقي ويَمدّ جسور التعاون، ولهذا فإن إبراهيم عندما أسكَنَ من ذريته في واد غير ذي زرع، استعاض عن ذلك بدعاء ربه أن يرزقهم من يُحبّهم، فقال: ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، لقد اختزل الناس في الأفئدة كنايةً عن الحُبّ والرحمة والشفقة، ولنركّز كيف قدّم القرآن حُبّ الناس على ثمار الأشجار.

• سؤال:

ذكر القرآن رسولين وصلا إلى سنّ الشيخوخة دون أن يكون لهما أولاد وهما إبراهيم وزكريا، بالنسبة لزكريا عندما رأى فاكهة الصيف مع مريم في الشتاء؛ دعا ربه أن يرزقه الولد.

أما إبراهيم فلم يذكر القرآن أنه دعا الله أن يرزقه الولد، وعندما بلغ سنّ الشيخوخة بشّره الله بالولد دون دعاء، فحمد الله وشكره، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، فهل كان يدعو الله سراً كما تشير خاتمة الآية السابقة؟

لكن إبراهيم - في المقابل - هو أكثر الأنبياء دعاءً لذريته كما ورد في عدد من آي القرآن، حتى أنه دعا لذريته بإقامة الصلاة وقبول الدعاء: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

فماذا تحمل هذه المفارقة في طياتها من معاني يا ترى؟

• العزائم مع الذات والرحمة بالناس:

من المعلوم أن إبراهيم كان شديداً على نفسه، حتى أنه عندما رأى في المنام أنه يذبح فلذة كبده اعتبر ذلك أمراً من الله، فحاول تنفيذه لولا تدخل الوحي!

ولم يكن بهذه الشدة على الآخرين، وإنما كان شديد الرحمة بالناس لدرجة أنه ظل يدعو لوالده رغم كفره، بل ولدرجة أنه طلب من الله أن يغفر ويرحم من يمكن أن تأخذه عبادة الأوثان: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ولم يقل: ومن عصاني فإنك شديد العقاب.

• رحمةُ الأنبياء:

عندما أرى رحمة الكائنات بأولادها وشفقة الأنبياء بأقوامهم حتى من كفر منهم؛ أزداد معرفةً برحمة الله، فهذا إبراهيم عليه السلام على سبيل المثال يدعو حتى لمن أغوتهم الأصنام كما في الآية السابقة: [إبراهيم: ٣٦]، ورحمة إبراهيم وحلمه، ورحمة كل الكائنات بصغارها؛ إنما هي جزء بسيط من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ولذلك فإني أعدّ آيات رحمة الأنبياء بأقوامهم من آيات الرجاء!

* * *

مآثرُ لُوط

• القيادةُ مسؤولية:

علّمنا القرآن أن القيادة مسؤولية صعبة التكاليف، وأن القائد مسؤول في أحلك الظروف، بل حتى في الأوقات التي يتقاطع فيها عالَم الغيب مع عالَم الشهادة، وتمتزج فيها السُّنن الجارية مع السُّنن الخارقة، فقد قال تعالى للوط على ألسنة ملائكته: ﴿ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ ﴾ [الحجر: ٦٥]، أي إمشِ خلف أهلك؛ حتى لا تفقد أحدهم وحتى يشعروا بالأمان!

• التركيز على المستقبل:

من صفات الذين يرتادون المستقبل بكفاءة، أنهم لا يتوقفون عند الماضي السيء، وإنما يأخذون منه العبرة ويغادرونه غير ملتفتين إليه، ولذلك قالت الملائكة للوط عليه السلام وأهله: ﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ﴾، ذلك أن التركيز على الهدف المستقبلي يجعل الطاقة مُنْصبَّة على تحقيقة، ولق ثبت أن الملتفتين إلى الماضي السيء قد يغرقون فيه، ويُروى بهذا الصدد أن زوجة لوط كانت قد سارت معه، لكنها لم تلتزم بهذا النهي فالتفتت إلى الخلْف ورأت ما حاق بقومها فصاحت ولَحق بها ما حاق بهم!

• درجُ الشدائد:

إن الحياة قائمة على الابتلاء، وهذا يتغلغل في ثنايا الحياة كافة، ولا يتخلف في أي ظرف، ولا يسلم منه حتى الأنبياء، بل هم أشد ابتلاءً من غيرهم !

ونلاحظ كيف فعل قوم لوط بنبيهم وهم يحاولون الاعتداء على ضيوفه من الملائكة، وضاقت بلوط الأرض وتَصبَّب عرقُه، وكادت أن تنفجر عروقُه، وتقول بعض كتب التأريخ إنه تم الاعتداء عليه بالفعل وهو يحاول الدفاع عن أضيافة،

وعندما بلغ قلبه إلى حنجرته وصاح متوجعاً: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾، عندها قالت له الملائكة: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ !

وكأنّ الفرَج هو السقف الذي لا يمكن الوصول إليه إلا عبر درج الشدائد !

• التبرّؤ من العمل لا من العامل:

علّمنا لوطٌ درساً بالغ الأهمية لا يزال الدعاة والمصلحون بحاجة إليه حتى قيام الساعة، وهو أن الناس مهما كانت أعمالهم قبيحة وجرائمهم شنيعة؛ فإن الكراهة تَنصبّ على قبائحهم، والبراءة تكون من أفعالهم لا من أشخاصهم: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٨-١٦٩]، وقد جاءت هذه الكراهية المنضبطة والراقية بعد جرائم كبيرة فعلوها، كان آخرها عزمهم على طرد لوط من قريته وأهله: [١٦٥-١٦٧].

ولتأكيد هذه القيمة قال تعالى لحبيبه محمد في ذات السورة: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، حيث ينبغي أن يتبرأ من أفعالهم فقط، ولا خصومة له مع أشخاصهم، فإن تابوا من تلك الأفعال صاروا إخوانا وأحباباً بدون أي حساسيات أو ثارات.

* * *

دروسٌ يعقوبية

• ذئب الحسد والتشاؤم:

التفاؤل من ثمار الإيمان، والمؤمن لا ينبغي أن يتشاءم، فشعاره في هذا السياق هو: «**تفاءلوا بالخير تجدوه**»، وقد أعطانا القرآن درساً إن تَمعّنَّا في سورة يوسف، فقد تشاءم يعقوب عليه السلام من طلب أبنائه باصطحاب أخيهم يوسف إلى البَرِّية، فقال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣]، وعندها التقط الأبناء الخيط فرموه في البئر وعادوا إلى أبيهم عشاءً يبكون، بعد أن نسجوا أكذوبة: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٧]، وما أكله إلا ذئب الحسد والتشاؤم!

• الشدة علامة الانفراج:

قد تكون زيادة المصائب وتضاعف النكبات قرينة على مجيئ الغيث وقرب الانفراج، ألا ترى أن يعقوب عليه السلام عندما فقد ابنه الثاني انبعث أملُه بعودة يوسف وأخيه حتى قال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]!

مع العلم أن بعض المفسرين يقولون إن بين فقده ليوسف وأخيه ثمانين عاماً!

• سببية العين:

في قوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، انطلق يعقوب من قاعدة الأسباب، حيث أراد أن يجنب أولاده أعين الحاسدين، وأن يرى بأعينهم كافة الطرق لعله يرى يوسف وأخاه!

• خرق المفسدين:

اقتضت مشيئة الله بأن المفسدين مهما أوتوا من الذكاء لابد أن الخرق العقلي سيدركهم حتى لا تصلح أعمالهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وهؤلاء إخوة يوسف وهم في الأصل أناس صالحون، لكن الحسد جرّهم إلى حماقة رمي يوسف في غياهب الجُبّ واتهام الذئب بأكْله، ولأن الخرق قد أصاب عقولهم فقد أتوا بقميصه سليماً ليس فيه أي تمزّق!

وعندما قال لهم يوسف: ﴿ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم ﴾ [يوسف: ٥٩]، لم يسألوا أنفسهم: ما أدرى وزير مصر بوجود أخيهم المجهول في فلسطين، وما حاجته به!

ومن تأمّل في القصة كما وردت في القرآن وتكميلاتها في كتب التأريخ والاسرائيليات سيجد الكثير من هذا القبيل، مما يؤكد بالفعل أن الله: ﴿ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٨١].

• عمل العواطف:

إذا خلَت العواطف من بصيرة التعقّل؛ تحولت إلى إعصار قد يجرف كل منطق، ويتجاوز كل حقيقة.

وأوضحُ نموذج لذلك هو إخوة يوسف الذين كانوا يتنافسون على قلب أبيهم يعقوب، إذ لمّا رأوه يحب يوسف اشتعل أوار غيرتهم حتى أحرق كثيراً من قيمهم، واندفعوا لاتهام والدهم بالتحيز كما قال تعالى على ألسنتهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧]، أي لن تصدقنا ولو كنا صادقين بسبب انحيازك الدائم إلى يوسف، ثم ذهبوا إلى اتهامه بما هو أكبر عندما قالوا: ﴿.. تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٥]، وذلك عندما أخبرهم بأنه يجد ريح يوسف !

وهذه صورة من صور الإسقاط، حيث اتهموا أباهم بما فيهم من ضلال التعصب وعمى الانحياز العاطفي!

* * *

سَجايا يُوسفية

• التميّز السلوكي:

كان يوسف الصديق عليه السلام إسلاماً يتحرك على الأرض، حيث جسّد في سلوكه دين آبائه يعقوب وإسحاق وإبراهيم، فقد ألغى المسافة بين عقيدته وسلوكه، وقضى على الفاصل بين مشاعره وشريعته.

ونجد تميّزه السلوكي واضحاً في أرجاء قصته، حتى أن رواد السجن الذي دخله مظلوماً جذبهم خُلقه الرفيع ولَفَتهم تعامله الحسن، فعندما ذهب فتيَان منهما إليه لينبئهما بتأويل رؤياهما قالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، بما يعني أن سلوكه مرئيٌّ ويَضجُّ بالخُلق الكريم والتعامل الراقي، بل هو في الذروة العالية من الكمال والجمال، وهذا ما يشير إليه التعبير القرآني: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، إذ أن الإحسان درجة فوق الإيمان، حيث التحليق المستمر في سماء الأخلاق الرفيعة، والجودة الشاملة في المعاملات الراقية.

• تسخيرُ الموهبة للدعوة:

امتلك يوسف من المواهب ما أهّله لاحتلال ذروة سنام القيادة والتوجيه، لكنه ظُلم من الأقربين والأبعدين، وتآمر عليه الرجال والنساء، وتمالأ عليه المحبون والمبغضون، ورُمي في السجن بضع سنين؛ فقط لأنه تسامى عن الدّنس ونأى بذاته عن الخيانة، ومع ذلك لم ينكفئ على نفسه ولم يَنقم على المجتمع، وإنما سخّر مواهبه لخدمة دعوته، وظل يتقرب إلى ربه الحق بخدمة الخَلْق، ومارس دور الداعية بكل كفاءة وتفان، كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ

بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨،٣٧].

ووصل الأمر في ما بعد إلى عمله في خزائن الأرض لقوم كافرين، وقام بتدابير عديدة جنّبتهم تداعيات سبع سنين عجاف من انقطاع الأمطار وكفوف النيل عن الجريان، مما كان كفيلاً بهلاك أعداد لا حصر لها منهم.

• حكمةُ الداعية:

تتضح حكمة الداعية في أقوال يوسف وأفعاله كلها، مثل الأسلوب الحصيف في الحديث عن نفسه وأهله أثناء دعوته كما ورد في الآيتين السابقتين، وانتقاله من التعريض إلى المباشرة، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٣٩ - ٤٠].

وتتضح هذه الحكمة في رفضه للخروج من السجن قبل أن تُبرّأ ساحته، وفي استعادته لأخيه عبْرَ شرائع المجتمع المصري نفسه، وكذا في تعامله مع إخوته، ومع العامة والخاصة.

• الإعذار:

لم يشعر يوسف ﷺ بالنقمة بتاتاً ممن ظلموه ورموه في غَيابة الجُبّ أو غياهب السجن، لأنه كان يحمل مجموعة من القيم التي تُخفِّف عنه، ومنها قيمة الإعذار، فقد كان يبحث لخصومه عن أعذار وعلى رأسها الجهل، حيث قال لأخوته عندما تمكّن منهم: ﴿ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ [يوسف: ٨٩]، فقد هوّن من فعلهم بحديثه عن جهلهم، وحتى عندما دعا إلى توحيد الله في السجن وبيّن لهم حقيقة التوحيد في الدين القيم، قال لهم: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ

﴿ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠]، فهو لا يفترض فيهم سوء النية وخُبث الطَّوِيّة بل يعيد خلل الشرك إلى أنهم لا يعلمون، ولو علموا ما بقوا على الشرك !

* * *

سنابلُ يُوسفية

• سنابلُ الأسباب:

إن قدرة الله لا تحدها حدود، وقوته لا توقفها موانع، ولكن مشيئة الله اقتضت أن تسير حركة الحياة وفق نواميس ثابتة، وأن تتحقق الثمار وفْق بذورها والنتائج عبْرَ أسبابها.

ومن صُوَ التوسّل بالأسباب قول يوسف عليه السلام لأهل مصر: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف: ٤٧]، فإن بقاء القمح داخل السنابل سبب للمحافظة عليه من التّلَف، نظراً لأن صوامع الغلال لم تكن موجودة في ذلك الزمن.

• درجة الصِّدّيقية:

هي درجة راقية تحتل ذُرى الإحسان، ونموذج الصِّديقية هو يوسف عليه السلام، ومن المعلوم أنه لم يصل إلى المقام الذي قيل له فيه: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ..﴾ [يوسف: ٤٦]، إلا بعد أن كابد المشاق في مدارج الصبر، وجاهد المصاعب وهو يعتلي مقامات التقوى، وبعد أن تقلّب في الامتحانات كلها، فنجح في ابتلاءات السّرّاء والضّرّاء.

• نعمة الأخوة:

الأخوة نعمة عظيمة، حيث يصير الأخ سنداً لأخيه في مواجهة الشدائد والنوائب، ويصير قلباً يمنعه من السقوط في وهْدة اليأس أو الابتئاس، ألا ترون ما قال يوسف لشقيقه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]، وأكد هذه الأخوة بضمير الفصل أنا بعد قوله إني، وذلك حتى يعينه على تحمل مشاعر المرارة، نتيجة مؤامرات إخوته الآخرين.

• مراعاة الجميل:

كان يوسف عليه السلام على خلق عظيم، فعندما راودته التي هو في بيتها وغلّقت الأبواب وقالت: هَيْتَ لَك؛ تذكّر جميل زوجها عليه، فقال لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾، فقد اتخذه العزيز ولداً وأحسن مثواه وأْتَمَنَه على بيته وأهله، فكان أهلاً لتلك الثقة رغم الإغراء والإغواء !

• تركيز:

إن تركيز نظرك على الهدف العظيم الذي تريد الوصول إليه أو الحصول عليه؛ ينسيك ألم الطريق ووجع السير، ألا ترى أن نسوة يوسف لم يشعرن بألم تقطيع أيديهن بالسكاكين؛ نتيجة تركيزهن على جمال يوسف؟ لقد أذهلهن الجمال عن الألم، وبهرهنّ النور عن الإحساس بالوجع، وقريب من هذا يقول الطغرائي:

أُعلِّـل النفـسَ بالآمـال أرقبهـا ما أضيقَ العيش لولا فسـحةُ الأملِ!

* * *

نَوائلُ يَعقوبية

• عُمقُ تربية الصِّغَر:

قيل بأن التعليم في الصغَر مثل النقش في الحَجَر، وأوضح المربي الأول محمد ﷺ أن الطفل يكون عجينة ليِّنة، من السهل تشكيلها كيفما يريد المربي، ولأن الأسرة تلعب الدور الأكبر في الطفولة المبكرة فقد قال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبَواه يُهوِّدانه أو يُنصّرانه أو يُمجِّسانه**».

ومن النماذج التطبيقية لهذه الحقيقة في القرآن الكريم قوله تعالى على لسان يعقوب لابنه يوسف: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [يوسف: ٥]، وبعد حوادث كثيرة وابتلاءات شديدة تعرّض لها بسبب تآمر إخوته عليه، فإنه لم ينس ما علّمه أبوه من أن الشيطان هو العدو الذي يوقد نار العداوة بين الإخوة ويفسد المحبة بين الأخلاء، فقد اتخذ من هذا الأمر مدخلاً لإعذار إخوته، حيث قال لهم: ﴿.. وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف: ١٠٠].

ونلاحظ أيضاً الأدب الجَمّ وهو يشير إلى أن الشيطان نزغ بينه وبين إخوته دون أن يتهم إخوته أو حتى يقول بأنهم صدّقوا وساوس إبليس وانجرّوا خلْف ألاعيبه!

• الاشتدادُ بابٌ الانفراج:

عندما جاء أبناء يعقوب أباهم بدم كذب؛ زاعمين أن الذئب قد أكل يوسف، قال لهم يعقوب: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، وعندما عادوا بعد ردح من الزمن بدون أخيهم بنيامين، وقالوا له بأن ابنه قد سرق ونال جزاء السارق وفق شريعتهم، قال لهم: ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ

ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣]، ونلاحظ أنه ردّد نفس العبارة الاتهامية وتَوسّل بالصبر الجميل، غير أنه في المرة الأولى عاتَب وفي الثانية فتح باب الرجاء، كأنه يعلم أن اشتداد الضيق إيذانٌ بمجيئ الانفراج !

• التمتُّعُ المشروع:

إن الرّتْع من الطيبات والترويح في حدود الحاجة والعقل، من الأمور المشروعة في الأديان كلها، ولهذا قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ .. ﴾ [يوسف: ١٨]، ولم يجد نبي الله يعقوب في ذلك أي غضاضة، وإذا كان هذا في اليهودية ففي الإسلام من باب أولى، فقد جاء الإسلام ليُحل ما حُرّم من الطيبات ويبيح ما حُظر من الزينة، وجاء ليضع الإصر عن أهل الكتاب ويمنع الرهبانية، حتى أن الرسول ﷺ سابَق زوجتَه عائشة في إحدى غزواته للجهاد؛ مؤكداً على التناغم الضروري بين الجهاد والترويح، أو بين الواجبات والحقوق.

❊ ❊ ❊

العُروجُ اليَوسفيّ

• الأسبابُ تَصنعُ النتائج:

عندما يطرق المرء أبواب المجد بجد فكأنه قد وصل إليه وحصَل عليه، ومن وَلَجَ الأبواب نحو التمكين فكأنما قد تحقق له التمكين بالفعل، أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فقد وردت هذه الجملة ضمن الآية ٢١ من سورة يوسف، وهي الآية التي تتحدث عن شراء العزيز ليوسف ووصيته لزوجته بالعناية به رجاءَ أن ينفعهم أو يتخذوه ولَداً.

ويشير ذلك إلى أن المقدمات تُحدّد الخواتيم، والأسباب تصنع النتائج.

• الحكمةُ قبل الحق:

إن منطق الحكمة يختلف قليلاً عن منطق الحق، فقد يكون من حقك رد الإساءة وقول ما يَحيك في نفسك ويَعْتَمل في صدرك، لكن منطق الحكمة قد يعقد لسانك عن الكلام، هذا ما علّمنا إياه يوسف عليه السلام كما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

فقد افترى إخوة يوسف عليه واتهموه كذباً بالسرقة، ولم يتورعوا عن الافتراء حتى بعد التآمر عليه وغيابه عن أعينهم سنين عدداً، وكان من حقه أن يرد عليهم بكل قوة، لكن حكمته أسَرّت مشاعره في قلبه وحبستها في صدره، واكتفى بالرّدّ على افتراءاتهم في ثنايا نفسه.

• أدنى الذَّلَّين:

في طريق يوسف الابتلائي وصل عليه السلام إلى مفترق طريقين لا ثالث لهما، أحدهما يقوده إلى ذل المعصية والآخر يذهب به إلى صَغار السجن، كما هو واضح من تهديد امرأة العزيز أمام نسوة المدينة: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ...﴾ [يوسف: ٣٢ - ٣٣].

فقد راودته عن نفسها فاستعصم، وبعد أن استنفذت كل وسائل الإغراء والإغواء؛ لجأت إلى التهديد والوعيد بالسجن والصَّغار، أي أنها ستسلط عليه من يذله فيه وليس مجرد السجن، لكنه فضّل هذا الصّغَار على أن يقابل الله بذل المعصية، ثم إن ذل السجن سينتهي بمغادرته أما ذل المعصية فسيبقى يحرق قلبه طيلة العمر.

ولأن يوسف عليه السلام يدرك بأنه مبتلى بهذا الأمر وأن الله سيرفع قدره ويضاعف أجره نتيجة صبره وصموده؛ فقد قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وكان يفترض أن يقول: «ربي السجن أخف ضرراً أو أقل وزراً» !

* * *

عَطايَا يُوسُفيّة

• إعذارٌ لا تعذُّر:

يصلح الشيطان عند المؤمنين لكي يكون عذراً لإخوانهم عندما يخطؤون، وذلك من ضمن منظومة الإعذار التي تحافظ على أواصر الأخوة من الانقطاع، كما اعتذر يوسف لإخوته قائلاً: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓ..﴾ [يوسف: ١٠٠]، فالشيطان هو الذي نزغ بينه وبين إخوته، فدفعهم لرميه في غيابة الجُبّ!

ولا يجوز بأي حال أن يكون أداة للتعذّر وذريعة للتفلّت من المسؤولية، فقد كان الأنبياء والأولياء يحملون أنفسهم وِزْر أعمالهم وليس الشيطان.

• الأمورٌ بمقاصدها:

قد تكون كثير من التصرفات والمقدمات محايدة، لكن المقصد هو الذي يجعلها حلالاً أو حراماً، إذ كل ما أدى إلى حرام فهو حرام.

وهناك إشارة خفية إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٣٦]، فالعنب عندما يعصر لا يصير خمراً على الفور، وإنما يحتاج إلى وقت حتى يتخمّر ويصبح مُسكراً، لكن القرآن هنا استخدم المجاز المرسل باعتبار ما سيكون !

• ابتلاءُ الجَمال:

الوسامة والجَمال نعمة من الله يبتلي بها من يشاء من عباده، ومن المؤكد أن لها ضريبتها، ولو افترضنا بأن يوسف لم يكن وسيماً، هل كانت امرأة العزيز ستغلق عليه الأبواب وتراوده عن نفسه وتقول له بكل سفور: هَيتَ لك ؟!

لقد قاد ابتلاءُ الجمال يوسفَ إلى جمال النجاح، حيث فضّل السجن والمَذلّة على الغواية والشهوة، فرفع الله ذكْرَه وقدْرَه في الدنيا والآخرة.

• بين الجسم والعقل:

هناك علاقة تكاملية وثيقة بين الجسم والعقل، حيث يؤثر كل واحد منهما على الآخر، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]، وذلك في سياق الحديث عن يوسف، فعندما اكتمل جسمه بالشباب والقوة نضج عقله بالعلم والحكمة.

* * *

أكاذيبُ إخوة يوسف

• شلاّلُ الكذب:

عندما يمتلئ الإنسان بالكذب فإنه يفيض به على كل شيء، ابتداءً من حواسه وأعضائه التي لا يزال يُعوِّدها على الكذب حتى تبدو وكأنها كاذبة بتكوينها، مثل الناصية التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦]، وهي فَصّ في المُخّ تُتّخَذ فيه القرارات الكاذبة والخاطئة، فما يزال يُعوّد هذه الناصية على الكذب ويُمرِّنها على الخطأ حتى تبدو كذلك !

وقد يصوغ الإنسان أحداثاً كاذبة بالمداد وربما عمَّدها بالدم، كما فعل إخوة يوسف الذين افتروا الكذب على الذئب وزعموا أنه أكل يوسف: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، والدم لا يَكذب إنما يَكذب من اتخذوه وسيلة لصياغة الكذب!

• فسادُ الكذب:

لا يمكن أن يكون الكذب طريقاً مفروشاً إلى القلوب، فقد أراد إخوة يوسف بطرحه أرضاً أن يخلو لهم وجهُ أبيهم، ولكنهم عندما رموه في البئر وجاؤوا على قميصه بدم كذب، غضب عليهم وإن كان قد كتم غيظه وغضبه، حيث قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ !

وهكذا فقد أرادوا أن يقتربوا نحو قلب أبيهم أكثر، لكنهم بالكذب والتآمر ابتعدوا عنه أكثر!

• قلقُ المُفْسدين:

«يكاد المسيء أن يقول خذوني»، مثل عربي قديم، وقد تجسَّد في إخوة يوسف حينما أتوا أباهم بدم كذب على قميص يوسف، زاعمين أن الذئب أكله، وقالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

• ماذا سرق يوسف:

اتهم إخوة يوسف أخاهم بنيامين بقولهم: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، وفي هذا الاتهام ليوسف بالسرقة إما أنهم كانوا كاذبين في اتهامهم له، وأن الحقد ما زال يملأ قلوبهم عليه، وإما أنه سرق قلب أبيه الذي أحبه إلى حدّ الشّغَف، وهذا كان سبب كيدهم له، وذكر المفسرون أقوالاً متكلّفة أخرى لا دليل عليها.

* * *

آفاقٌ يُوسفية

• رسالةُ الرؤيا:

الرؤيا الصالحة جزء بسيط من الوحي، ولها ثمرتها إن أحسن المؤمنون فهمها، حيث تأتي واضحةً كفلَق الصبح حتى لا تُنسى، وقد أبرز القرآن قصة الرجل الذي جاء إلى يوسف وقال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ﴾ [يوسف: ٤٣]، بصيغة المضارع أرى مع أن الرؤيا أصبحت ماضياً، والمضارع يفيد الاستمرار، وكأنه يشاهد البقر مباشرةً نتيجة قوة الصورة، من أجل أن لا ينسى الرؤيا في غمار الحياة أو يظن أنها أضغاث أحلام، ذلك أنها كانت ذات رسالة مرتبطة بمصير مجتمع بكامله.

• أجْرا الدنيا والآخرة:

إن أصحاب الفهم الأخروي البحت لهذا الدين، يُظهرونه كأنه دين سلبي لا علاقة له بصناعة الحياة، وعليه فإنهم يسحبون سائر المفاهيم إلى الآخرة، ومنها مفهوم الأجر الذي يعطيه اللَّه مقابل الإحسان وعمل الصالحات.

فهذا نبي اللَّه يوسف عندما أحسن بفكره وفعله؛ منحه اللَّه التمكين في الدنيا وسمّاه أجراً بجانب الأجر الأخروي، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٦ - ٥٧].

• قميصٌ يوسف:

إن أبرك قمصان الأرض هو قميص يوسف:

- فقد كانت سلامتُه دليل كذب إخوة يوسف بأن الذئب أكَلَه: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖ﴾ [يوسف: ١٨].

– وكان دليل براءة يوسف من تهمة امرأة العزيز بأنه أراد بها سوءاً، إذ أكدت سلامته من الأمام أنها هي من راودته عن نفسه.

– وكان سبب بُرء يعقوب من العمى، عندما ألقاه أبناؤه على وجهه فارتدّ بصيراً !

• لماذا عرفهم يوسف ولم يَعرفوه:

أورد القرآن أن يوسف بعد سنوات طويلة من البعد عن إخوته، عرفهم عندما التقاهم ولم يعرفوه: [يوسف: ٥٨]، ويبدو أنه عرفهم لأنه كان صغيراً عندما تركوه فشَبّ حتى تغيرت ملامحه، ولاسيما أنه كان مُنعَّماً في بيت العزيز ثم في الوزارة، إضافة إلى ذكائه الوهبي والكسبي بسبب طاعته لله، بينما كانوا على العكس، ولذلك بعدما فاتحهم سألوه مستغربين: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠].

ويمكن القول بعد ذلك بأن المظلوم مهما كان تسامحه لا ينسى ظالمه!

* * *

علَلٌ إخوةِ يوسف

• تنطُّع إخوة يوسف:

ارتكب إخوة يوسف عدداً من الكبائر؛ بدأت بالحسد والكذب وانتهت بالشروع في القتل، ومع ذلك فقد كانوا على قدر من التدين دفع بعض رواة التأريخ والسِّير للحديث عن أنهم أنبياء، وحاشا لله أن يكونوا أنبياء، لكنهم كانوا ذوي تدين مغشوش!

وعلى سبيل المثال فإن يوسف عليه السلام أدرك هذا الخلل في التدين عند إخوته فاستثمره من أجل أن يعودوا إليه بأخيه، حيث أمر غلمانه بأن يضعوا بضاعتهم التي جاؤوا بها وسط متاعهم: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢]، وكان يعرف أن تورّعهم سيدفعهم إلى العودة من أجل إعادة بضاعتهم حتى لا يأكلوا حراماً!

ومما يؤكد هذا التدين المنقوص، أن غلمان يوسف عندما اتهموهم بالسرقة؛ غضبوا بشدة وقالوا: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣].

ووصل التزامهم بالشريعة الحِسّية إلى حد أنهم ذهبوا إلى اقتراح عقوبة من يثبت سرقته لصواع العزيز بتطبيق شريعة إسرائيل عليه، وهي استعباده بأن يصير رقيقاً لمن سرقه منه، كما في الآية ٧٥ من سورة يوسف.

وعندما أعطوا أباهم موثقاً لحماية بنيامين حاولوا الوفاء به حتى قالوا ليوسف: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]، هذا رغم أنهم صدّقوا أنه سارق ويستحق الاسترقاق وفق شريعتهم، ولكن الوفاء بميثاقهم لأبيهم دفعهم إلى عرض أحدهم للاسترقاق بدلاً عنه، بل إن كبيرهم رفض مبارحة الأرض حتى يأذن له أبوه، كما في الآية ٨٠ من سورة يوسف!

• استفحالُ المرض:

يبدو أن داء الحسد الذي حلّ في قلوب إخوة يوسف، لم يستطيعوا الانفكاك منه حتى بعد أن رأوا الآيات وتسبّبوا بذلك القدر من الآلام لأبيهم وأخيهم !

نستنبط ذلك من صيغة اعتذارهم ليوسف، فقد قالوا له: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩١]، إذ مع اعترافهم بخطئهم فإنهم يقولون بأن الله آثر يوسف عليهم، وهي جملة بقدر ما تبرز أفضلية يوسف في العلم والأخلاق إلا أنها تشي عن حسد غائر في الصدور، كأن تقدّم يوسف في هذه الفضائل كان على حسابهم هم!

• عثراتُ المجرمين:

مهما كان المجرم ذكياً فإن بشريته لابد أن تخذله وتجعله يرتكب خطأ ما، يدلّ طلاب العدالة على مرتكب الجريمة.

وهاهم إخوة يوسف قد حاكوا مكيدتهم الجماعية ليوسف بإتقان، وأتقنوا الدور وأحسنوا التمثيل، حيث جاؤوا أباهم يبكون واختاروا وقت العشاء ليخفي الظلام انفعالاتهم الكاذبة التي قد يدركها أبوهم، لكنهم ارتكبوا حماقة عندما جاؤوا أباهم «بدَم كَذِب»، كما وصفه القرآن، أي جاؤوا بثياب يوسف ملطخة بالدم وهي سليمة من التمزّق، فكيف أكله الذئب ولم يمزق ثيابه؟! بل كيف أكل الذئب عظام يوسف ولم يُبقِ منه شيئاً إلا الثياب ؟!

* * *

موسى الإنسان

• تطمينٌ القلب:

عندما رأى موسى عصاه تهتز كأنها جانٌّ على شكل ثعبان مبين؛ اعتراه الخوف البشري حتى أنه ولّى مدبراً ولم يُعقّب، وهناك طلب الله منه الرجوع، وعلّمه طريقة يستكين بها قلبُه إذا أصابه الفزع، حيث قال له:

﴿ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ ﴾ [القصص: ٣٢]، فقد قيل في معناها: «إذا خفتَ فضعْ يدك على فؤادك يسكن جأشك».

وهنا نحتاج إلى إجراء تجارب علمية على عدد من الناس لنعرف إن كان هذا الأمر خاصاً بموسى، أم إنه متاح لكل الناس؟

وإن ثبت تأثير وضع اليد على القلب عبر الأجهزة العلمية؛ فسيكون هذا الأمر إضافة جديدة إلى الإعجاز النفسي والطبي في القرآن الكريم.

• ثمرةُ الخِبرة:

للتجارب ثمار عديدة، من أهمها أنها تقضي على الخوف وتمنح الإنسان ثقة بنفسه وبربه، بعد أن يرى كم كان الله معه، وكم أنه لم يخذله في المُلِمّات.

وقد عرفنا أن موسى عليه السلام خاف عندما جاء السحرة بسحر عظيم، لكنه لم يخف عندما وصل إلى ساحل البحر مع قومه ولحقه جيش فرعون حتى كاد أن يدركه، فقد قال له قومه: ﴿ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١]، فردّ عليهم بكل ثقة وطمأنينة: ﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢]!

فما الذي تغيّر، هل كان يشك يوم الزينة بأن الله قد يخذله ويتركه فريسة للسحرة؟!

بالتأكيد لا، لكن الخبرة أزالت من قلبه الخوف البشري الفطري، وربما طبّق التوجيه الرباني بوضع يده على صدره.

وقد يكون السبب في زوال هذا الخوف ما أوحاه الله إليه قبل الخروج من مصر، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ** ﴾ [طه: ٧٧].

• الطمَعُ البشري:

الطمع من السمات الثابتة في طبائع البشر، والتي يهذبها الإيمان ويُسخرها للخير، لكنه لا يلغيها تماماً، لأنه لا يستطيع أحد أن يتخلى عن خِلْقته الترابية.

فهذا موسى هو الرسول الوحيد الذي كلّمه الله أكثر من مرة، فأطمعه ذلك في رؤية الله، عندما قال: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ولمعرفة الله بهذه الخصلة في الطبيعة البشرية، قال لموسى: ﴿ فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي خُذْ حظّك من الرسالة والكتاب ولا تسأل زيادة عليه، بل اكتفي به واشكر الله عليه.

* * *

وسائلُ مُوسَى

• الذات أولاً:

يُعلمنا القرآن من خلال قصة موسى عليه السلام، أن تكتيل الفاعلية وإعداد القوة يبدأ من بناء وتمتين الذات، فقد طلب موسى من ربه أن يشرح صدره ويُيسِّر له أمره، وأن يَحلل عقدة لسانه حتى يفقهوا قوله.

ثم انتقل لطلب الدعم الخارجي، إذ طلب من الله أن يجعل هارون أخاه وزيراً له، يشدُد به أزْره ويُشركه في أمره، ويتعاونا في التسبيح الكثير والذكر الوفير.

هذه المعاني واردة بوضوح في الآيات ٢٥-٣٥ من سورة طه.

• استقامةُ العلم:

طريق الاستقامة هو طريق العلم، أما طريق الجهل فهو سبيلٌ أعوج، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]، ومن المؤكد أن العلم الحق يقود إلى طريق الاستقامة.

• عصا موسى ولسان هارون:

لم يرسل الله رسولين في ذات الوقت وبذات الرسالة إلا ما كان من موسى وهارون، ذلك أن تلك الرسالة كانت مزدوجة المقصد، حيث واجهت طغيان الفراعنة وتعنت الإسرائيليين.

ولأن فرعون كان أطغى طغاة الأرض، فقد أوضحت لنا قصة موسى وهارون أن مواجهة الطغيان الفرعوني المتسلح بسحر الإعلام وسطوة القوة، لا تكون ناجعة ما لم تتسلح بـ (عصى موسى) و(لسان هارون) أي بالقوة والبيان.

• وحدة الثوابت وتنوع الاجتهادات:

أطلق الله سبحانه وتعالى على موسى وهارون مصطلح الرسول الواحد: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].

ومع ذلك فقد اختلف الرسولان في بعض الاجتهادات، مثل الموقف من أصحاب السامري الذين عبدوا العجل، وهو الاختلاف الذي لا يلغي الوحدة.

• مراعاةٌ تخصصات الناس وقدراتهم:

لا يزال القصص القرآني يراعي مواهب الناس وتخصصاتهم، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

فقد طالب موسى بالأخذ بالتوراة كلها، لكنه طالبه بأن يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسنها، وهذا لا يعني التبعيض، ومن المعلوم أنه لا يوجد في توجيهات الله حسن وأحسن، ومن باب أولى ما هو عكس حَسَن، ولكن التفاوت سيكون في الاهتمامات المبنية على الميول والتخصصات، كما قال ﷺ: «**اعملوا فكلٌ ميسرٌ لما خُلق له**»، وفي الآية إشارة إلى أن الوصول بفاعلية الفرد إلى منتهى الكمال الممكن لا يتأتي إلا إذا عمل الفرد من الزاوية التي يراها أقرب إلى قلبه وعقله وقدراته: ﴿يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

* * *

سبائكٌ موسويّة

• وحدانيةُ الطريق وتعدد المناهل:

في قصة موسى عليه السلام درس بليغ في وحدة الثوابت وتعدد المتغيرات، حتى في إطار المعجزات الخارقة للنواميس الكونية.

إنها ذات العصا التي كان يتسلح بها موسى عندما وصل هو وقومه في رحلة الخروج من فيافي العبودية إلى بساتين الحرية، عندما وصلوا إلى البحر الأحمر، قال الله تعالى له: ﴿ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ ﴾ [الشعراء: ٦٣]، وفي آية أخرى: ﴿ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا ﴾ [طه: ٧٧]، إنه طريق واحد لكل بني اسرائيل كرمز لوحدة الثوابت، لكنهم عندما وصلوا إلى صحراء سيناء وشعروا بالعطش؛ طلبوا من موسى أن يدعو الله ليسقيَهم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡ ..... ﴾ [البقرة: ٦٠].

لقد انفجرت اثنتا عشرة عيناعلى عدد فخائذهم، إشارةً إلى جواز التعدّد الذي لا يضرّ بالوحدة، وإلى جواز التنوع الذي لا يطمس الائتلاف، وأكد هذا المعنى بالإشارة إلى تعدد المشارب: ﴿ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡ ﴾، مع أن المشرب واحد وهو شلاّل الهداية، وفي ذلك إشارة إلى التخصصات أو إلى الأفهام التي تتنوع وربما اصطرعت، لكنها لا تُفسد للوُدّ قضية، أي أنها تبقى داخل العقول ولا تتسلل إلى القلوب !

• فَرادةُ موسى:

موسى هو الوحيد من رسل الله الذي كلّمه ربُّه مباشرةً، ولقد اصطنعه الله لنفسه: ﴿ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴾، واصطنعه تحت رقابته الدائمة في بيت أعدى أعدائه:

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]، وتمّ رميه في اليَمِّ وهو طفل صغير، وربّاه في بيت العزّ بعيداً عن بيوت بني إسرائيل التي كان يسكنها الذّل ويُظلّلها الخوف!

وهو الرسول الوحيد الذي أرسل الله معاه أخاه استجابة لدعوته، وبُعث برسالة مزدوجة ذات شقين:

الشِّق التوحيدي: وهو متجه إلى بني إسرائيل، حيث دعاهم إلى عبادة الله وحده.

الشق التحريري: وهو متجه إلى فرعون وقومه، حيث عمل على تحرير بني إسرائيل من قبضة استعبادهم، واجتهد في تشذيبهم من طبائع الطغيان، وفي تأديبهم على مابدر منهم من الغرور ومنازعة الله في خصائص ألوهيته.

ولهذا كانت قصة موسى هي الأكثر استعراضاً في عشرات السُّوَر من القرآن الكريم، ولا يضاهيه في ذلك أي نبي !

• المُؤَمِّن شريكٌ الداعي:

إن الذي يؤمّن على دعوة الداعي يصبح شريكه في الدعوة وفي الإجابة، قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]، مع أن الخطاب لموسى فقط لأنه هو من دعا وحده، ويبدو أن هارون قد أمَّن على دعوة موسى، فاستجاب الله للداعي وللمُؤمِّن.

* * *

الإحسانُ اليُوسفي

• سلوكُ الإحسان:

ليس الإحسان شعارات تُنسج بعَسْجَد الحروف، وليس شعائر تؤدى في محاريب التّبتُّل، وإنما هو سلوك مُنسابٌ في خدمة الخلائق، وأخلاق تسيل لرَيّ القلوب، فها هو الصِّدِّيق يوسف عليه السلام يصير قدوةً حسنة في أخلاقه الراقية، وأسوةً طيبة في معاملاته النبيلة، لدرجة أن سجيناً يلاحظ هذا الإحسان ويشهد به عندما يقول: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٣٦]، ولدرجة أن أناساً أجانب جاؤوا من بعيد قد لاحظوا هذا الإحسان وشهدوا به، وهم إخوته قبل أن يعرفوه، فقد قالوا له: ﴿ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٧٨]، ولاحظوا كيف أن الجميع قالوا: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ ﴾، فهو سلوك مرئي بالعين المجردة.

• جزاءُ الإحسان:

شهد الله ليوسف بالإحسان، وأخبر أنه أعطاه العلم والحكمة نتيجة هذا الإحسان، فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]، واسم الإشارة (كذلك) يشير إلى أن جزاء الإحسان قانون عام وليس منحة خاصة بيوسف.

وشهد تعالى ليوسف بالإحسان مرة أخرى عندما أخبر أنه مكّن له في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء جزاء لإحسانه، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦].

ويبدو أن يوسف كان واعياً بإحسانه نتيجة حرصه الشديد على الالتزام به، وكان مُدركاً أن ما حصل عليه من تمكين إنما هو ثمرة هذا الإحسان، فقد قال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

فيضُ الإحسان:

قالت العرب في أمثالها: «كلّ إناء بما فيه يَنضح»، ونجد مصداق ذلك بوضوح في قصة يوسف عليه السلام، فقد كان محسناً في ذاته، فانعكس إحسانه الداخلي على رؤيته للأشياء بعَيني الحُسن، سواء في علاقته مع الخَلق أو مع الخالق، فعندما راودته امرأة العزيز قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فقد نظر بعين الإحسان إلى العزيز الذي عامله بلطف، ولو لم يكن يوسف محسناً لنظر بالعين الأخرى فرأى أن هذا الرجل قد استخدمه رقيقاً في بيته!

وفي علاقته باللَّه لم ينظر إلى تلك الابتلاءات التي ملأت حياته بالمعاناة والمرارة، وإنما نظر إلى الخاتمة الحسنة، فقال: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ..﴾ [يوسف: ١٠٠]، إنه لا يتذكر دخوله السجن بدون ذنب وإنما يتذكر فقط خروجه منه!

* * *

دروسٌ يوسفية

• شُكرُ النِّعَم:

مع أن يوسف عليه السلام بِيع في سوق الرقيق لعزيز مصر، إلا أن التعامل الحسن للعزيز معه جعله يثني عليه، حتى أنه عندما غلّقت امرأة العزيز الأبواب وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقد أشار إلى قوله تعالى على لسان العزيز: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وأكّد يوسف إحسان الرجل إليه، بالإشارة إلى أن كفران النعمة من الظلم الذي يَحرم الإنسان من الفلاح !

ونلاحظ الثناء الحسن والامتنان الواضح لإحسان الرجل في قول يوسف: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.، أي إنه ربّ نعمتي ووليّ إحساني.

• اقتران الدعوة بالخدمة:

قدّم الأنبياء دروساً بالغة في خدمتهم لبني الإنسان، كل واحد منهم في المجال االذي يُحسنه، وكانت موهبة يوسف قد نبغت في تأويل الرؤيا، فخدم الناس من خلالها، وعندما كان في السجن رافقه فَتَيان ورأى كل واحد منهما رؤيا، ففسرّهما لهما، لكنه قرن هذه الخدمة بوظيفته الأساسية وهي الدعوة إلى الله، ولذلك قال تعالى على لسانه: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ..﴾، [يوسف: ٣٩-٤٠]، فقد دعاهم إلى الله من خلال بوّابة التوحيد.

• التسبُّب والتوكُّل:

كان يوسف الصِّديق كامل التوكل على الله، لكنه لم يترك التسبُّب كما يفعل عامة المتصوفة، فعندما كان في السجن وجاء الإفراج عن أحد رفقائه الذي خادماً للملك؛ قال له: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] أي اذكر مظلمتي للملك، لكن

ساقي الملك نسي ذكر هذا الأمر، ولم يتذكره إلا بعد بضع سنين، بعد ما رأى الملك رؤيا واحتاج إلى من يفسرها له، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾، وليس المقصود هنا يوسف كما ذهب إلى ذلك من يرون أن التسبُّب يتنافى مع التوكل، وهذا ما يؤكده كثير من العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب التفسير ضمن موسوعته الضخمة (الفتاوى)، وأكد هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ..﴾ [يوسف: ٤٥]، أي أنه كان قد نسي فذكر بعد مُدّة.

• ظلم الخيانة:

إن الخيانة من أبشع صور الظلم، فعندما راودت امرأةُ العزيز يوسفَ عن نفسه، بعد أن غلّقت الأبواب وقالت: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف: ٢٣]، فقد تحصّن يوسف وتمنّع، واعتذر لها بأن زوجها أحسن مثواه، ثم قال: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، إشارة إلى الخيانة التي ستتحقق لو استجاب لرغبتها الجامحة، وهي خيانة الزوجة لزوجها وخيانة المُؤتمَن لكن ائتمنه، فقد بلغت ثقة العزيز بيوسف على عرضه إلى حدّ أنه طمع في أن يتخذه ولداً !

* * *

نَفائسُ يُونس

• ضعفُ الأسباب:

ما أضعف الأسباب إن لم تقترن بمشيئة الله القادرة على كل شيء، ولو كانت هذه الأسباب نبياً من الأنبياء فإنها لا تملك من الأمر شيئاً، فهذا نبي الله يونس قد غادر قومه مغاضباً لأنهم لم يهتدوا بهداه، وظن أن لن يُقدِّر الله عليه عقوبة، وكانت العاقبة أن سمّاه الله آبقاً ورُمي في البحر، ولما عاد إلى نينوى وجد قومه قد اهتدوا في غيابه، فهل كانت صدفةً أن لا يغضب من الأنبياء بهذه الطريقة إلا يونس؟ وأن لا يهتدي من الأقوام المُكذِّبين إلا قوم يونس ؟!

• الإذناب والاستغفار:

لا عقوبة ولا مصيبة إلا بذنب، إنه قانون صارم صاغه الله تعالى في واحدة من آياته المُحْكمة: ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣]، وحتى لو كان هذا السوء بسيطاً على شاكلة غضب نبي على قومه وحنقه منهم، كما فعل يونس بن متّى مع أهل نينوى في الموصل !

والشق الثاني من المعادلة أنه لا رفع للعقوبة بدون توبة واستغفار، وهذه هي غوّاصة النجاة التي ركبها يونس عندما أدركته العقوبة والتهمه الحوت، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

• مصيبةٌ تطهيرية:

كما أن تنزّل النعم والآلاء على المكذبين ليس تكريماً وإنما استدراج، فإن معاجلة الصالحين بالعقوبة ليس إهانة وإنما تطهير، بدلالة أن الله عاقب نبياً من أنبيائه برَمْيِهِ في عمق البحر وابتلاعه من قبل حوت ضخم !

• المُسارعة بالتوبة:

سارِعْ بالاعتراف بالذنب بين يدي ربك، قبل أن تهوي على رأسك مطرقة العقوبة، فقد أكل آدم وحواء من الشجرة المحرمة فاعترفا بذنبهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقتل موسى رجلاً قبطياً بالخطأ فاعترف بذنبه على الفور: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

أما يونس فقد ترك قومه الذين أمره الله بدعوتهم والصبر عليهم، ظناً أنه لم يرتكب ذنباً فعاجلته العقوبة، ولم يتب إلا بعد نزول العقوبة وهو في بطن الحوت في بطن ظلماتٍ ثلاث: الحوت والبحر والليل !

• دعاءُ القلوب:

يدعو كثير من المسلمين بدعاء يونس ولكن لا يُستجاب لهم، ذلك أنهم استعاروا لسان يونس البليغ ولم يَستعيروا قلبه الضارع!

فالقلوب هي قاعدة الإطلاق للدعوات التي تخترق حُجُب السموات !

* * *

أنبياءٌ في القُصور

• ضخامة الأحلام:

إن أصحاب العقول الكبيرة يحلمون أحلاماً كبيرة ويبنون آمالاً عظيمة، فيسعون إلى تحقيقها بإرادة فولاذية وتصميم راسخ، وبأعمال دائمة وأنشطة دائبة.

ويُعلمنا القرآن كيف رأى يوسف في منامه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين، إنها همّة تُطاول الثُّريا، إذ أن المنامات تعكس أحلام اليقظة ما لم تكن أضغاث أحلام!

ولأن يوسف كان جاداً في تحقيقها، فإنه عندما لاحت له فرصة بسيطة اقتنصها على الفور، حيث قال للملك: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]، لكن ذلك لم يكن من أجل العُلوّ في الأرض وإنما من أجل خدمة الخلق ورفعة الإيمان.

• آمالٌ عريضة:

كان الأنبياء أصحاب هِمَم عالية وآمال عريضة، فهذا نبي الله سليمان يقول: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، وهذا يوسف عليه السلام يعرض نفسه على ملك مصر بعد أن أراه مواهبه وقدراته فيقول: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥].

وكان سائر الأنبياء متطلعين لهداية أقوامهم إلى الحق وحكمهم بالعدل، وإلى الارتقاء بهم نحو العلم والخير، والذهاب بهم نحو القوة والوحدة، وإلى قيادتهم نحو النصر والتمكين.

• تربيةُ القصور:

في قصور الفراعنة تربى نبيان، **الأول**: يوسف عليه السلام، وقد قال عزيز مصر لزوجته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

والثاني: موسى عليه السلام، وقد تبدلت المقاعد؛ إذ طلبت امرأة فرعون من زوجها وجنوده أن لا يقتلوه: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

ولقد كان رجاء العزيز وامرأة فرعون في محلهما، فقد كانا صالحين نافعين، ولم ينجح مكر امرأة العزيز ولا بطش فرعون في دفعهما إلى طريق الانتقام والفساد!

• مشاعر المسؤولية:

من المعلوم أن الله أعطى سليمان مُلكاً غير مسبوق أو ملحوق، حيث سخّر له الجن والرياح والطيور، ومقابل هذا التسخير سخرَّ سليمان نفسه للقيام بأعباء المُلك بما يتضمن من شعور بالمسؤولية، ودقّة في المتابعة والمراقبة، وصرامة في الثواب والعقاب.

لقد أوصله الشعور بالمسؤولية إلى حد أن وصفه ربه فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠]، وجعلته دقّة المتابعة يفتقد الهدهد وهو من أصغر الطيور وسط حشد هائل من الكائنات، فقال: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، ومع أنه اتسم برحمة الرسل وتسامح الأنبياء إلا أنه كان بصرامة الملوك في تطبيق معايير الثواب والعقاب، ولذلك قال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

وبسماحة الأنبياء وصرامة الملوك حلّق في سماوات التنقّي والترقّي.

* * *

رَحَمَاتٌ المُصطفى

• الحزن على الأعداء:

بقدر ما كان ﷺ يضيق من أفعال المشركين فقد كان يحزن عليهم، وذلك لعلمه أن هذه الأفعال ستُرديهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧]، ولأنه ﷺ رحمة كما وصفه ربه، فقد كان حزنُه عليهم يسبق ضيقَه من مكرهم، ولهذا قدّم القرآن الحزن على الضيق !

وترتسم في هذه الآية القيمة الدعوية التي بلغها محمد ﷺ، فإن حزنه كان على أشخاصهم، بينما انْصَبّ ضيقُه على مكرهم، وهذه علامة أخرى على مدى اتساع رحمته بهم وخوفه عليهم !

• حَسَراتٌ الرحمة:

كان محمد ﷺ رحمةً عظمى تتجسّد في الأرض على شكل إنسان خلا من كل قسوة، ولعلمه اليقيني بما أعدّ الله في الآخرة من جحيم للكافرين والمنافقين، فقد كان قلبه يتقطع من أجل هدايتهم، ولا يزال يملأ حياته بالتحسر على من لم يؤمن به، ولهذا قال له تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨]، وهذا النهي الرباني يوضح مقدار الشفقة المحمدية بجميع بني الإنسان.

• آثار الرحمة:

لو تأملنا الآيات التي تعاتب النبي ﷺ على بعض اجتهاداته، سنجد أن تلك الاجتهادات كانت من آثار رحمته السابغة بالخَلْق وحرصه الشديد عليهم، فقد عاتبه الله على توليه عن عبد الله بن أمّ مكتوم، لأنه وجد فرصة استماع من قبل كبراء المشركين فأراد اقتناصها رحمةً بهم، وعاتبه الله سبحانه وتعالى على أخذ الفدية من أسرى بدر،

وما دفعه لذلك إلا رحمته بهم ورجاءه أن يتوبوا إلى الله ويؤوبوا إلى الإسلام، وبسبب رحمته فقد نهاه الله عن الاستغفار للمشركين وعن الصلاة على المنافقين.

* * *

قبائحُ الشّاذّين

• أُمُّ القبائح:

كان قوم لوط أسوأ الشاذين أخلاقياً في تأريخ الأمم، وفي حديث القرآن عنهم ما يشي بقبح شذوذهم، رغم ميله إلى الاختصار والاختزال.

ومن الواضح أن الجهل هو أُمّ الخبائث وأصل القبائح، فهو التربة الخصبة لنمو سائر الفواحش والآثام، ولهذا قال لوط لأهل سدوم: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٥]، إذ أن للفواحش تكاليف باهضة الثمن وتداعيات بالغة الخسارة، حسب ما توضح الدراسات الغربية عن الآثار الصحية والاقتصادية والاجتماعية لما يحدث في ممالك سَدُوم المعاصرة !

• منظومة الشذوذ:

من يرتكب جريمة الشذوذ يكون قد ارتكب أم الآثام، حيث تصغر الدنايا في عينه بعد هذا السقوط، فلا يتورع عن جريمة ولا يتطهر من فحش، ومع مرور الزمن يصبح الشذوذ منظومة متكاملة من الخطايا والموبقات، وقد واجه لوط قومه بهذه الحقيقة المفجعة، فقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾، وهنا نلاحظ كيف استخدم مصطلح رجال وليس ذكوراً، مع أن للرجولة خلالها العظيمة، حتى يُعظّم جُرمهم ويُبيِّن كيف تَحوَّل مشاريع الرجال إلى مجرد دواب يَنزون عليها!

وفي ذات الآية يشير إلى كسرهم لكل حواجز الحياء، بميلهم إلى المجاهرة والمفاخرة بما يعاقرون من الآثام، حيث قال: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾، فالنادي هو المكان الذي يجتمع فيه علية القوم، والمنكر اسم جنس لكل ما تنكره النفوس السوية وتستقبحه الفطر السليمة.

• الإسراف في الفساد:

لقد أسرف أهل سدوم في فسادهم حتى تجاوزوا كل حد، حيث كانوا في سكرة كبرى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فقد بالغوا في الفسوق على أوامر الله وثوابت الفطرة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، ولقد طمست تلك الفواحش أعينهم فازدادوا غياً وانحطاطاً: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].

ولهذا كله فقد وصفهم نبيهم بالإسراف في الفساد، عندما قال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١].

• جزاء الإسراف:

من عدل الله المطلق أنه يجعل الجزاء من جنس العمل، وعندما تعاظمت خطايا قوم سدوم، دعا لوط ربه فقال: ﴿انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، فلم يعودوا فاسدين فقط، بل تحول كل واحد منهم إلى مفسد، يبغي الفساد في الأرض، ويبذل كل مستطاع من أجل إشاعة الفاحشة بين الناس، حتى أنهم حاولوا إفساد لوط ومن آمن معه، نفهم ذلك من قولهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، أي يتطهرون مما نفعله وما دعوناهم إليه.

ولقد عاجلهم الله جزاءَ إسرافهم بعدد من العقوبات، وهي:

- الرمي بحجارة من سجيل: ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤]، وهي حجارة البيوت التي خربوها بهذا المنكر، حيث انتهت الأسر الفطرية.

- جعل تلك القرى عاليها سافلها بإجرامهم، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

- وأرسل عليهم مطراً مالحاً لتطهير الأرض من أدناسهم وأرجاسهم: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، وهكذا فإن الإسراف في الجرائم من ناحية الكم والكيف قد استنزل عدداً من العقوبات!

آدابُ الخُلَّة

• كمالُ الذّوق:

كان الخليل إبراهيم شديد الأدب مع خالقه، كامل الذوق في الحديث عن ربه أو مخاطبته، ومع علمه أن كل خير وشر مقدور من الله إلا أن كمال ذوقه جعله ينسب الخير والنفع إلى الله وينسب الشر والضر إلى نفسه، قال تعالى على لسانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠]، فقد نسب الخَلق والهداية والإطعام والسَّقْي والشفاء إلى الله وأضاف المرض إلى نفسه.

• النداء الخفي:

النداء الخفي هو الدعاء الخافت، والذي ينطلق من عقل يؤمن بأن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، ويخرج من قلب مُفعم بالخشية من الله، وزاخر بحب الله وتعظيمه، ولهذا مدح الله نبيه زكريا فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾، إذ بجانب امتلاكه لما سبق من العقل والقلب، فقد كان خجلاً من أن يسأل الله ما يتجاوز الأسباب والسُّنَن، وهو أن يرزقه الولد مع كون زوجته عاقراً وهو شيخ كبير، بدلالة التوطئة لهذا الطلب بقوله: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّى وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبۡ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٣ - ٥]، وبدلالة أنه عندما بُشِّر بالولد استغرب !

ولما كان النداء الخفي أقوى نفاذاً، لارتباطه بما سبقت الإشارة إليه، فقد قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

• تضحية القادة:

في التصور الإسلامي يقف القُوّاد في مقدمة الصفوف، فيقودون جنودهم إلى النصر ويدرؤون عنهم الأخطار، ولا يدرؤون بهم الأخطار عن أنفسهم.

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ..﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وهناك قراءة تقول: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ ....﴾ أي كم قُتل من نبي معه أتباع كثيرون؛ فربِّيون تعني كثيرون، وهذا أصح التفسيرات كما ذكر ابن تيمية في فتاواه (الجزء ١٤).

• الخوف من الذنوب:

لا عصمة لمن أخطأ مهما كان ما قدمه ومهما بلغت منزلته، فهذا نبي الله يونس عندما واجهه قومه بالتكذيب والصّد؛ غضب منهم وهجَرَهم دون أمر من الله بذلك، ظاناً أن الله لن يعاقبه لمكانته كنبي، لكن الله ضيَّق عليه السفينة وجعل السَّهم يطلع عليه، فرُمي في البحر والتقمه الحوت، ولولا أنه كان من التائبين المُسبحين للَبثَ في بطنه إلى يوم القيامة، مقابل هذا الذنب فقط، مما يوجب الخوف من الذنوب وعدم الأمن من مكر الله وعقابه، ولذلك قال الله تعالى لحبيبه محمد ﷺ: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ [القلم: ٤٨].

* * *

سجايا المصطفى

• رِفْعةُ البَيِّنات:

إن امتلاك الإنسان للبينات يرفع قدره ويَنْسأ ذكْرَه، نفهم هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]، فإن الأهواء تهوي بأصحابها في القيعان، بينما ترفع البينات أصحابها نحو القمم، ولذلك استخدم حرف الاستعلاء على، كأن بيِّنته صارت معراجاً ارتقى به في الذُّرى، ولهذا كان محمد ﷺ أعلى الخلق وأملكهم للبينات، فقد قال له ربه: ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: ٥٧]، فهو يقف على رأس البينة حتى أنها رفعته فوق سائر الخلائق !

• القرآن الناطق:

إن كان في البشر من قرآن ناطق فهو محمد بن عبد الله ﷺ، وليس في أي وقت وإنما عندما يتكلم ويتصرف كرسول، فإنه حينئذ ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، حيث يتحد مع الوحي في العصمة.

ومن أوجه الشبه بين القرآن والرسول وصف البشارة والنذارة، فقد قال تعالى عن القرآن: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [فصلت: ٣ - ٤]، وقال لمحمد: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الفتح: ٨].

ونلاحظ هنا الاتحاد في جمع الصفتين وترتيبها بذات الترتيب.

• جادة اليُسْر:

إن واحدة من مقاصد بعثة المصطفى محمد ﷺ هي إنزال الآصار التي تثقل كواهل الناس، وتقطيع الأغلال التي تقيد حركتهم في الحياة وتمنعهم من التمتع بالطيبات، كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وهذه الأغلال هي من ابتداع التدين المغشوش ولا تزال من ديدن المتنطعين، حيث أن كَرّ الأيام وفَرّ الليالي يؤديان إلى ابتداع أفكار وأوضاع ما أنزل الله بها من سلطان، ويظن من يبتدعها أنه يتقرب بها إلى الله زلفى.

ولا شكّ أن وظيفة المجددين هي وضع هذه الآصار وتقطيع تلك الأغلال، وإعادة المسلمين إلى جادة اليُسْر وسدرة الفطرة السّويّة.

• الإعداد الكاسح:

في معرض تفاعل المؤمنين مع فريضة: ﴿ وَأَعِدُّواْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ينبغي أن يصل الأمر إلى حدّ تحقيق النصر بأقل كلفة، وذلك بإحكام الخُطَط وإتقان التنظيم، وباستثمار الإعلام وتكثيف الحرب النفسية، كما حدث في غزوات النبي ﷺ، حيث كانت المعارك تُحسَم بأقل عدد من القتلى والشهداء، بل إن معارك مُفصيلة كبرى قد حقّقت مرادها بدون دماء وأشلاء كما حدث في فتح مكة على سبيل المثال، فقد انداحت الفتوحات بعدها في كل أنحاء الجزيرة العربية، وظل ذلك النصر الحاسم مؤثراً على كثير من المناطق التي فتحت أبوابها بدون قتال، ولذلك سمى الله ما حدث في سورة(الفتح) بالظفر، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح: ٢٤] أي نصركم عليهم بدون قتال وضحايا !

* * *

فوائد إبليسية

• لا يأس من الدعاء:

مع أن الدعاء يسير وفق منظومة هذا الدين السببية، لكن ذلك لا يعني يأس من لم يتأهل للدعاء وتتوافر له شروطه، فلا ينبغي أن يقنط أحدٌ من رحمة الله، وليستحضر في هذا السياق أن الله أجاب دعوة رمز الشر إبليس عندما قال: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٣٦ - ٣٧].

• السماحة والوقاحة:

سجّل الله في الآيتين: ١١٨، ١١٩من سورة النساء موقفاً من مواقف سماحته الربانية، عندما سمح لإبليس بالتكلم في حضرته، والذي كان وقحاً عندما تعهد لله بأن يتخذ من عباده نصيباً مفروضاً، وأنه سيُضلهم ويُمنّيهم، وسيأمرهم بقطع آذان الأنعام وتغيير خلق الله!

ويُعد إيراد هذا الموقف توجيهاً خفياً للمسلم بأن لا يمنع الآخرين من حرية التعبير، ولو تضمن ذلك ما قد يُعد من الكفر، على الأقل إن كان المقام مقام حوار.

ولكن تفاسير عصور ما بعد النور والحرية، والتي أصّلت للاستبداد وتكميم الأفواه، ذهبت إلى أن هذا الكلام لم يصدر أمام الله، ولكنه جال بخاطر إبليس وعزم عليه في نفسه، فأخرجه الله إلى العلن كأنه قد قاله بلسانه !

• الصَّغارٌ جزاءُ الكبر:

أوضحت قصة إبليس أن الصَّغار جزاء الاستكبار؛ فقد قال تعالى لإبليس عندما تكبر عن السجود لآدم: ﴿ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣].

• تشابُك الذنوب وتسلسُل الخطايا:

علّمنا الله عبر سيرة إبليس أن الذنوب إن لم تُغسَل بالتوبة؛ فإنها تصبح سلسلة متصلة الحلقات، حيث يقود بعضها إلى بعض، فهذا إبليس رغم مكانته التي أهّلته لمجالسة الملائكة، عندما عصى الله وأبى السجود لآدم، برّر هذا الخطأ بارتكاب خطيئة أكبر، وهي قوله: ﴿أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، وربط هذه الأفضلية بالعنصر وليس بالعمل: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، وبعد أن عاقبه الله بالهبوط من السماء إلى الأرض دعا الله أن يمهله لا ليتوب ويصلح ما أفسده، ولكن ليرتكب المزيد من الجرائم، حيث تعهد بأن يُغوي بني آدم كما أغرى أباهم بالأكل من الشجرة، والأسوأ من هذا كله أنه اتهم الله بإغوائه: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وبسبب تصوّره الخاطئ اندفع إلى تصرّف خاطئ وهو القيام بالصّد عن سبيل الله، والعمل الدائب من أجل دفع البشر للكفران بدلاً عن الشكران. راجع [الأعراف: ١١-١٨].

وهكذا فإن الذنوب تُثمر الآثام، وما تزال الصغائر تنمو حتى تصبح كبائر، وإن لم يتم لَجْم الأخطاء فإنها ستصبح خطايا.

* * *

دُروسٌ إبليسية

• العلمُ والعمل:

كان إبليس من الجن وهم مثل الإنس في التكليف وحرية الاختيار، وقد أدخله الله ضمن خطابه للملائكة لمكانته العلمية، حتى أن كثيرين توهّموا أنه من الملائكة، وكأن الله أراد أن يقول لنا إن العلم يمكن أن يرتفع بكم إلى درجة الملائكية، غير أن العلم بدون عمل يمكن أن يهبط بكم كما هبط بإبليس ذاته!

• المُدافعة:

إن استحضار عداوة الشيطان بشكل دائم؛ أسلوب قوي للتذكّر والفيئة ووسيلة لتجديد التوبة والإنابة، مع أن الإنسان يرتكب الخطيئة بملئ إرادته، فعندما عصى آدم ربه ونزع الله عنه لباسه هو وزوجه، ناداهما تعالى قائلاً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢ - ٢٣]، وفي هذا الأمر توظيف مطلوب لسُنّة المدافعة في سبيل تحقيق الإصلاح والمحافظة على الاستقامة.

• الهروب خارج الذات:

عندما أكل آدم من الشجرة المُحرّمة وبدت له سوأته، أدرك على الفور أن الخلل من داخله فاتهم نفسه بالظلم وطلب من ربه التوبة، لكن ابنه المباشر قابيل عندما لم يتقبل الله قربانه منه لم يراجع مكمن الخلل في نفسه، وإنما نظر خارج ذاته فألقى التبعة على أخيه هابيل، كما قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، كأن أخاه هو السبب في عدم تقبل هذا القربان منه.

وهكذا فإن الذهاب إلى معالجة مشاكل الذات في الخارج هو منهج إبليسي، فإنه عندما عصى أمر الله بالسجود لآدم لم يراجع نفسه وإنما ذهب إلى الخارج، حيث انتقص من عنصر آدم وتعهّد بغوايته مع أبنائه كأنه هو السبب، واتهم الله بأنه من أغواه وأنه كرّم آدم عليه !

• الإنسلاك مع الشيطان:

تُعد آيات الله الدرع الحصين للإنسان، وبالتسلح بها لا يمكن للشيطان أن يتسلل إليه، لكنه عند الانسلاخ منها تنفتح أبوابُه المغلقة للشيطان، فيدخل دخول الظافرين، حتى ينجح نجاحاً عظيماً في إغواء الإنسان مهما كان علمه.

وقد ضرب القرآن لنا مثلاً عملياً لعالم من بني إسرائيل، فقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

وكأن الانسلاخ عن آيات الله هو انسلاكٌ حتمي في ركب الشيطان !

• تحذير:

إياك أن تجعل دعاءك لله مما يزيدك شقاء وطغياناً، كما فعل إبليس عندما طلب من الله أن يُنظره إلى نهاية الدنيا، فكانت استجابة الله لهذه الدعوة زيادة في جرائم إبليس، حيث استزاد من الخطايا ما تكفّل له بزيادة الغضب الرباني والعقوبة الإلهية، ولذلك قال ﷺ: «**خيرُكم من طال عُمرُه وحسُن عملُه، وشرُّكم من طال عُمرُه وساءَ عملُه**».

* * *

مَسالِكُ إبليس

• عنصرية إبليس:

لا شكّ أن العنصرية والطائفية من أخلاق إبليس، فقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فور نفخ الله فيه من روحه، تقديراً لهذه النفخة والنفحة الربانية، وكان إبليس قد رفعه الله إلى درجة الملائكة بسبب علمه، لكنه لم يُطع الأمر كما فعلت الملائكة، ثم أصّل لهذه المعصية بمعصية أكبر وهي إبرازه للعنصرية المقيتة التي تدمر البشر في عصرنا، حيث: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [الأعراف: ١٢]، ومع أن الملائكة مخلوقون من النور وهو أسمى من النار والطين إلا أنهم أطاعوا الأمر، لعلمهم أن الأمر مرتبط بالله لا بآدم، ثم إن معيار التكريم والتفضيل هو التقوى وليس العنصر أو الطائفة، فهذه من أخلاق الحيوانات التي تغلب عليها غرائز القطيع !

ومن الغريب أن بعض المفسرين ردّوا على عنصرية إبليس بعنصرية مماثلة، حيث انطلقوا يبينون فضل الطين على النار، وكأن الله أسجد الملائكة لآدم لأن عنصره أزكى من عنصر إبليس !

• طول العمر:

ليس طول العمر نعمة بحد ذاتها، فهو سلاح ذو حدين إذ يمكن للمرء أن يملأه بالخير أو بالشر، ولذلك قال ﷺ: «**خيرُكم من طال عُمره وحسن عمله وشركم من طال عُمره وساء عمله**».

ومن المعلوم أن إبليس هو رمز الشر في هذا الوجود، ومع ذلك هو الأطول عمراً، ولحماقته فقد قال بعد المعصية وبعد غضب الله عليه: ﴿ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾.

• مَنافِذ القابليات:

لقد تعهد إبليس باحتناك ذرية آدم، حيث قال مخاطباً ربه: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧]، ويبدو أنه كان يعرف نقاط ضعف الآدميين بهذا الكلام، حيث عزم على التسلل إليهم من خلال قابليات الكفر التي يتسم بها الناس نتيجة تكوينهم الترابي، وهذه الطبيعة البشرية هي التي أشار إليها الله بقوله: ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

ولنلاحظ كيف اتفقت النصوص في وَسْم الناس بأن أكثرهم لا يشكرون، ومن ثم فإن الشيطان إنما تسلل من منافذ القابليات إلى مَواطن الضعف فاستفزّها واستثارها.

• مَواطن الحسد:

في عملية الحسد ينتصب الشيطان عدواً للإنسان، سواء كان حاسداً أو محسوداً، فالحاسد يرسل إليه شواظ من نار حسده لآدم، والمحسود يسلط عليه نار الحاسد، ولهذا قال تعالى على لسان يعقوب: ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [يوسف: ٥]، فقد ختم الآية بالحديث عن عداوة الشيطان الواضحة للناس، إشارة إلى أنه بذلك سينال من الحاسد والمحسود!

* * *

خِلَالُ الرِّجال

• الرجولة تكليف لا تشريف:

تشير آيات القرآن إلى أن الرجولة (الذكورة) تكليف لا تشريف، قال تعالى: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه: ١١٧]. فالخطاب لآدم لأنه مسؤول عن حواء، ومع أن العداوة الإبليسية هي لآدم وحواء، والخروج من الجنة سيكون لهما معاً فإنه نسب الشقاء لآدم دون حواء؛ لأنه الذي سيتحمل مسؤولية الشقاء لطلب الرزق وتدبير شؤون الأسرة، وهذا الأمر أحد سببي القوامة: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ .. ﴾ [النساء: ٣٤].

ومن هذه الآية يتضح أن القوامة نفسها تكليف في المقام الأول، وإذا كان فيها من تشريف فهو مقابل قيام الرجل بأعباء التكليف، مثل قوامة العرب على أمة المسلمين، فقد قال تعالى لنبيه محمد: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي شرفُكم، فالشرف يقابله المُساءلة، والضريبة المطلوبة هي استثمار العقل في فهم هذا القرآن، وإلا كان وبالاً على أصحابه.

• قيادة الرجل للمرأة:

منذ الخلية الإنسانية الأولى كانت القيادة لآدم: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ... ﴾ [طه:١٢٠-١٢١]، حيث كانت الوسوسة لآدم، لكن النتيجة هي أن آدم وحواء أكلا من الشجرة، وإذ لم يُشر القرآن إلى حواء بداية، فإن آدم يتحمل مسؤولية حواء التي تبعته في الأكل بحكم أنه القائد.

وهذه الآية لا تُبرّئ حواء من الوزْر الذي وقع فيه آدم بل تُحمِّل آدم المسؤولية الأكبر، مع الإشارة الضمنية إلى ضعف المرأة، ويؤكد ذلك نهاية الآية حيث قال تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه:١٢١].

ثم عاد القرآن لذكر اجتباء الله وهدايته لآدم وحواء: ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢٢]، إشارةً إلى تبعية حواء، مع أن أمر النزول إلى الدنيا جاء للطرفين: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ [طه:١٢٣]، ذلك أن تلك التبعية لا تعفي المرأة من المسؤولية، هذا إن لم يكن المقصود إبليس بجانب آدم في ألف التثنية، وتكون حواء تابعة لآدم أيضاً.

إحكام الصنعة:

لا يزال القرآن يطرق الأسماع بدعواته الحثيثة للإحسان والتجويد والإتقان، وذلك في سائر شؤون العبادة الشاملة في محراب الحياة، وينطبق ذلك على إتقان الصنعة.

ومن التوجيهات الإلهية في هذا الشأن قول الله لنبيّ الله داوود: ﴿ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ﴾ [سبأ: ١١]، أي لا تجعل المسمار الذي تضعه في الثُّقب دقيقاً فيضعف وينفلت، ولا غليظاً فيَقصم الخشب، ولكن اجعله بقدر الثُّقب.

* * *

غوائلُ الطُّغاة

• حساسية الطغاة:

يمتلك الطغاة حساسية شديدة تجاه حريات شعوبهم وكرامات مواطنيهم، حيث يحرصون على بقائهم في بيوت الطاعة وحظائر العبودية، ويمتازون بحذر شديد من أي فكرة أو دعوة قد تتم ترجمتها إلى انعتاق وتمكين ولو بعد حين.

وإلى هذا المعنى أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]، وترسم كلمة يحذرون تلك الحساسية الشديدة، حيث استخدم المضارع ليفيد الاستمرار، وجاء بصيغة الجمع ليفيد التّوجّس الجماعي من حرية الآخرين. ووصلت الحساسية إلى حد إصدار حكم بإعدام كل مولود ذكَر من اليهود، بل وتم استعباد الإناث إمعاناً في تمريغ كرامة بني إسرائيل، حتى لا يخرج من بينهم رجل حر يقودهم إلى أفياء الحرية!

• التّطيُّر بالصالحين:

إن التطير بالمؤمنين والتشاؤم من الصالحين ليس مرضاً عصرياً، بل هو آفة قديمة تضرب بجذورها في أعماق التأريخ، ووصل الحال إلى التطير بموسى كليم الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، ونلاحظ هنا أن كلمة سيئة جاءت نكرة لتفيد العموم والاستغراق، حيث أن كل مشكلة في المجتمع أو في الحكم أو حتى في المناخ سببها موسى ومن معه !!

وفي عصرنا ونتيجة التقدم الهائل في وسائل التواصل الاجتماعي صار التطير بالصالحين يأخذ حيزاً كبيراً جداً، ويقوم على دراسات نفسية واجتماعية، مما يؤدي إلى تجريف عقول العوام وخَلْق وعْيٍ مُشوّه يُحمَّل الإسلاميين تبعات كل المشاكل

والمصائب، وأنه لولاهم لما حدث الخلل في التوازن البيئي ولما ارتفعت درجة الحرارة ولما وقع ثُقب الأوزون!!

• تَربيبُ السلطان:

إن الذين يجعلون الجاه والسلطان غاية مقصودة، فيستحلون في سبيلها المُحرمات ويقطعون من أجلها الأرحام، إنما يجعلون هذا السلطان نداً لله، ظانين أنه قادر على كل شيء، لكنهم يوم القيامة يدركون الحقيقة، كما قال تعالى على لسان من أوتي كتابه بشمالة عندما يصيح بتوجّع وتحسّر: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٨ - ٢٩]، وسنلاحظ عند التمعّن في هذه الجملة أن قائلها يؤمن بأن السلطان كائن حي ويستطيع أن يفعل كل شيء، حيث يتحسّر عليه حتى في الآخرة قائلاً: «هلَكَ عنّي سُلطانيه»، والهلاك إنما يكون للكائن الحيّ!

• استبانةٌ واستقامة:

أوضح القرآن الكريم إحدى غايات تنزيله وتصريف آياته، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ولم يقل لتَسْتبين سبيل المؤمنين، لأن سبيل المجرمين إن استبانت للمرء استقامت أمامه سبيل المؤمنين، لأنها في الضد منها تماماً.

• خُدّام النِّعال:

لكي يؤهّل الله موسى لمخاطبته أمره تعالى بقوله: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]، فإذا كان النعلان في قدمي الشخص نفسه يَمنعانه من التأهُّل لمناجاة الله، فكيف بمن امتلأت قلوبُهم بنعال غيرهم من الظلمة والمستبدين، وبمن يتلذّذون بخدمة نعالهم، بل وبخدمة تراب نعالهم ؟!

* * *

غَرائبُ المُشركين

• الكذب على النفس:

إن الاعتقاد النفسي خطير جداً على رؤية الإنسان للحقائق، ولو افترى المرء أكذوبة ما وظل يقنع نفسه بأنها حقيقة، فستحتل بعد زمن من التكرار عرَصَة الحقائق في عقله، كما كان يقول جوبلز مسؤول الدعاية النازي لأرباب إعلامه: «إكذب ثم اكذب حتّى يُصدّقك الناس وتُصدّق نفسك»!

وقد أوضح القرآن بأن صنفاً من المشركين الذين يفترون على الله الكذب، ما زالوا يُكرِّرون هذا الكذب حتى يُصدِّقون كذبهم، ويستقر في بواطنهم كأنه حق، وما فتؤوا يَكذبون حتى تُصدّق قلوبُهم ما افتَرَتْه ألسنتُهم، ويستمر هذا التصديق حتى في الآخرة، حيث يَحلفون بالله أمامه أنهم ما كانوا مشركين: ﴿ ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ﴾ [الأنعام:٢٣]، وقد عجّب الله نبيَّه من هذا الكذب العجيب، فقال: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡۚ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾[الأنعام: ٢٤]، فقد ضلّ ما كانوا يفترونه، وخدعوا أنفسهم بتكراره وفق قاعدة: (ما تَكرّر تَقرّر)!

• التزلُّف بالأصنام:

إن أغرب أنواع التزلُّف هو تزلُّف المشركين إلى الله بالأصنام، كما قالوا: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، حيث يَقطعون كل عُراهم مع الله وهم إنما يريدون التقرب منه !

وكم يتقرب بعض المسلمين في زماننا بما يبعدهم عن الله، وكم يتوسلون بأولياء لا ينفعون ولا يَضرّون، ولا يزيدهم هذا التوسل إلا انقطاعاً عن الله، لأن الله لا يرضى أن يُشْرَك به!

• الجُرْم المُتجدِّد:

إن الذي يَسُنّ للناس سُنّة سيئة يكون عليه وِزْرها إلى قيام الساعة دون أن يُنقص ذلك من أوزار المتأخرين شيئاً، كما جاء في الحديث الصحيح، وربما هذا ما لفتت الأنظار إليه الآية التي تقول: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ [مريم: ٨٨ - ٨٩]، وذلك بالالتفات من أسلوب الغَيبة: «وقالوا» إلى أسلوب الخطاب: «لقد جئتُم شيئاً إدّاً»، كأنه يقول للحاضرين إن افتراءكم الولَد على الله لا يقلل منه أنّ من بدأ هذا الافتراء قَومٌ قد أكَل الدهر عليهم وشرب، ذلك أنه جُرم كبير ومتجدد؛ لأنه إساءة للذات الإلهية وسقوط في أوحال الشرك الأسوَد!

• صرامةُ التوحيد:

يتسامح الله بحقوقه تعالى ويُظهر إمكانية العفو عن من يريد، باستثناء موضوع التوحيد فإنه شديد الصرامة فيه، ولا يقبل معه أي صورة من صور الشرك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ونلاحظ هذه الصرامة من خلال الآتي:

- أن الخطاب هنا للنبي ﷺ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، فكيف بمن هو دونه؟!

- التوعد بإحباط العمل وكينونة الخسارة، مع استخدام حرف اللام في العقوبتين للتوكيد .

- بيان قطعية هذا الأمر في كل الأزمان، بذكر أنه وارد في الوحي الذي تَنزّل على محمد ﷺ وعلى سائر الرسل من قبله.

* * *

كُنوزٌ اللاشخصانية

• كُرهُ الأعمال لا العاملين:

لا يزال المؤمن الحق يدرك أن العداوة بينه وبين المنحرفين والشاذين ليست عداوة شخصية، وإنما ترتبط بالأفكار العرجاء التي تُعَشْعش في عقولهم والأفعال العوجاء التي ترتكبها جوارحُهم، ومهما كانت الظروف فإنه لا يفقد بوصلة السير ولا ينجرف إلى منزلقات الشخصانية.

فهذا نبي الله لوط يريد قومه أن يأتوا ضيوفه الغرباء وهم رجال في عزّ الظهر، وقد حاول استثارة رجولتهم واستجاشة عواطفهم، فلم يزدادوا إلا عتواً ونفوراً، بل انطلقوا لتهديده قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء:١٦٧]، لكنه في قمة انفعاله من هذا الانحطاط لم يقل لهم سوى: ﴿إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٦٨-١٦٩]، حيث أعلن الكُرْهَ لأعمالهم لا لأشخاصهم، ودعا الله أن ينجيه هو وأهله مما يعملون فقط!

• البراءة من الأعمال:

وفي ذات الدرب الصاعد إلى السماء بمعارج السُّمُو، وفي نفس السورة يُعلِّم الله حبيبه محمدا ﷺ أن ينحاز إلى هذه القيمة العظيمة، حيث أمره أن يرد على العصيان بالتبروء من المعصية لا من العاصين، ومن العمل السيئ لا من العاملين، قال تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، ولنلاحظ كيف يسيل هذا الأدب الرفيع من علياء أخلاقه النبوية، فهو بريء مما يَعملون حيث استخدم الفعل المضارع الذي يفيد الديمومة والاستمرار، ولم يقل مما عملوا، إذ لربما نسي لهم ما مضى، لكنه هنا يتبرأ من الأعمال القبيحة التي لا تتوقف، والتي تُواجه شفقته بالكراهية، وحنانه بالمعصية!

• التَّميُّز السّلوكي:

إن ديدن الصالحين أنهم إذا سمعوا لغوا الطالحين فإنهم يعتزلون اللغو دون الاصطدام مع اللاغين، ويُعرضون عن الجهل دون أن يقاطعوا الجاهلين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥]، حيث أبانت الآية بأن الإعراض عن اللغو، إنها دعوة واضحة للتميّز السلوكي والتَّرقّي المُعاملاتي، وللسُّموق القيمي والسُّمُوّ الروحي، بعيداً عن آفات الشخصية وثقافة القطيع!

• البَراءة من المصالح الذاتية:

من علامات أصحاب الحِسّ الرسالي أنهم لا يبتغون بجهودهم الإصلاحية مصلحةً ذاتية مهما كانت، وهذا ما أبرزه مُؤمنُ آل ياسين وهو يَحُضّ قومه على اتِّباع المرسلين: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [يس: ٢٠ - ٢١]، وكلما كان الداعية أبعد عن المصلحة الذاتية كان أحرى بالاتباع وأجدر بالاستجابة لما يدعو له.

* * *

قَلائدُ المتقين

• ظُهور التّخَفِّي:

عندما انْتَبذت مريم العذراء مكاناً قَصياً، رغبةً في التخفي ومبالغةً في الإخلاص، فإن الله قد ذكرها بالاسم في حوالي ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم، بل ولم يذكر امرأة بالاسم غيرها، وهكذا فإن من يبالغون في إنكار ذواتهم في سبيل الله فإن الله يهيئ لهم من يرفع ذكرهم ويَلهج بمحامدهم، وعندما انشغلت مريم بتلاوة (آيات) الله جعلها الله تعالى (آية) للعالمين!

• المساواة في الاستضافة:

يتحلى المؤمن بصفتي العدل والكرم دوماً، ولا سيما عندما يأتيه الضيوف فإنه يمنحهم نفس الاستضافة، ويَخلع عليهم ذات التكريم، كما قال تعالى على لسان لوط: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ [الحجر: ٦٨] بالمُفرد، فمع أنهم عديدون:»هؤلاء» إلا أنه جعلهم شيئاً واحداً: «ضيفي»، وفي ذلك إشارة إلى تساويهم في عينه وفي استضافته وتكريمه لهم، وكيف لا يكون كذلك وهو خريج مدرسة عَمِّه الخليل إبراهيم في الخِلال كلها ولا سيما في السخاء والجود ؟

• النّوم الصِّحّي:

لا يترك القرآن شاردة ولا واردة في طريقه لإسعاد الناس في هذه البسيطة، وحتى في النوم فإنه يُعرّفهم كيف ينامون نوماً صحياً لا يؤثر على وظائف أجهزتهم الحيوية، إنه حينما يتحدث عن المؤمنين يصفهم بقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، وجنوبهم جمع جنب، بمعنى أنهم ينامون على الجَنْب، وهو الجَنب الأيمن كما جاء عن النبي ﷺ، ولو كان الأمر مطلقاً لقال: «يتجافون عن المضاجع»،

أو «تتجافى أجسامُهم عن المضاجع»، ليشتمل النوم على الظهر أو على البطن، واليوم يؤكد العلم الحديث أن النوم الصحي هو النوم على الجنب الأيمن !

• ثَلجُ المغفرة:

إن ثلج المغفرة يُبرِّد سخائم القلوب ويطفئ نيران الغضب، ولذلك وصف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧].

ومن عدل الله أن من أطفأ نيران غضبه على الخَلْق من أجل الله، فإن الله يطفئ نيران غضبه عليه.

• أشواقٌ وأشواك:

لا يستفيق المرء من سكرة الدنيا ما لم يُدْم قدميه بـ(أشواك الخوف)، ويَضع قُدّامه (أشواق الرجاء)، ولهذا فقد وصف الله المسارَعين بالخيرات بأنهم: ﴿ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

* * *

الجَزاءُ الوِفَاق

• اسْتجلابُ النِّعم للنّقم:

كلما كانت نعم الله على الناس أكبر، فإن نقمته عليهم إن كفروا تصير أشد، ولقد أنعمَ الله على الأمم التي هلكت بآلاء جليلة ومِنَن جزيلة، من أراضٍ خصبة وأمطار غزيرة وأنهار عظيمة، لكن كفران النعم أحال هذه النعم إلى نقمٍ، حيث تسبّبت أعاصير الذنوب بتدمير كل شيء، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]، ولاحظوا معي دقة التصوير القرآني: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾، للتعبير عن غزارة المطر حتى لكأن السماء قد أرسلها الله بعظمته فانسكبت كلها على شكل مطر غزير، والتقدير: وأرسلنا المطر عليهم مدراراً، بدلالة أنه لم يقل: مدرارة!

• الجزاءُ العادل:

أن الأيدي القاسية التي امتدّت إلى يوسف لترميه في غيابة الجُبّ، هي الأيدي الذليلة التي امتدت إليه فيما بعد طالبةً منه الصّدَقة: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]، وإن الألسنة التي اتهمته بالسرقة هي نفس الألسنة التي وصفته بعد ذلك بالاحسان وطلبت منه الغفران.

• الاستغفار من جنس الذنب:

قد لا يكون هجر يونس لقومه هو الذنب الذي عوقب بسببه، ولكن الباعث عليه وهو ما وصفه الله بقوله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي لن يُقدّر الله عليه بعقوبة، ولذلك كان الاستغفار من جنس الخطأ: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، حيث بدأ بتوحيد الله وتنزيهه قبل أن يعترف بظلمه لنفسه!

وعقّب الله على ذلك بقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤]، وهو درس بليغ يُبيِّن خطورة كل شيء له علاقة بتوحيد الله.

• فناءُ الخلود:

من المعلوم أن الزمن في الجنة أزلي فلا موت فيها، والعجيب أن آدم فقَد النعيم الخالد في سياق بَحْثه عن الخلود، وذلك بفعل وسوسة الشيطان التي قالت له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾؟ [طه: ١٢٠]، وعندما أكل من شجرة الخلد المزعومة هبط من الجنة وفقَد الخلود، وعندما جرى وراء المُلك الموهوم ضاع منه المُلك الحقيقي، حيث كانت الملائكة تخدمه في الجنة فصار كثير من أبنائه يخدمون الأباليس في الأرض، وكانت النّعم تجيئ إليه فصار يَركُض إليها رَكْض الوحوش!

• انفتاح أبواب السماء:

عندما ضاقت على نوح الأبواب وعقمت الأسباب، دعا ربه متقرباً إليه بضعفه، ومتوسلاً إليه بعجزه عن الرد على ظلم من بغى عليه من قومه، عندها انفتحت أبواب السماء، قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٠-١٣].

* * *

سبائك يُونسية

• الخبرة السلبية:

الخبرة السلبية عندما يُحسن المرء الاستفادة منها تصبح طاقة إيجابية تساعد في تحقيق المقصد، وعلى سبيل المثال هذا نبي الله يونس بعد أن أَبَقَ إلى الفُلْك المشحون والتقمه الحوتُ وهو مُليم، استغفر ربه وسبَّحه في أعماق البحر، فأنجاه الله مما هو فيه، ثم حدث ما أخبر الله به: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧ - ١٤٨]، ومن المؤكد أن عوامل عدة تناصرت وأدّت إلى تحقيق ذلك الإنجاز باعتناق مائة ألف للإسلام، ومن المرجَّح أن الخبرة السابقة ليونس ساعدته في الوصول إلى هذه النتيجة.

• صابونُ العقوبات:

إن المُؤاخذة بالذنوب في الدنيا هي علامة حب الله لعبده، حيث تدل على وجود الخير فيه وعلى أنه مؤهل للتطهر في الدنيا وغير مستحق للعذاب الأخروي الأليم، وعلى سبيل المثال هذا نبي الله يونس ﷺ عندما أَبَقَ إلى الفُلك المشحون، وعندما أوشكت السفينة على الغرق اتفقوا على رَمْي أحدهم بالقُرْعة: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، إذ طلعت عليه القُرعة ثلاث مرات وتَمّ رميَه في اليَمّ بالفعل، فهل كان ذنب يونس أكبر من ذنوبهم؟ بالتأكيد لا، ذلك أن الأنبياء معصومون عن ارتكاب الكبائر على الأقل، لكن الله أراد أن يُنقّي عبده من ذنبه، وكأن العقوبات صوابين الذنوب في الدنيا!

• استمرارية:

كم يرتاح عامة المسلمين للمَرويات التي تتحدث عن أجور عظيمة على أفعال بسيطة، أو عن مخارج من مآزق عظيمة مقابل عمل طارئ وبسيط، ومن هذا الباب

ذهب كثيرون إلى أن نجاة يونس من بطن الحوت كانت بسبب مقولته هناك: «أن لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين»، بينما ذهب ظاهر الآية التي تقول: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤]، إلى أنه كان من المُسبِّحين قبل أن يدخل في هذه المحنة: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾، ولذلك قال ﷺ لابن عباس: «تَعرَّفْ إلى الله في الرخاء يعرفك في الشِّدّة»، وما كان تسبيح يونس عليه السلام في جوف الحوت إلا امتداداً لتسبيحه الذي اشتهر به بين قومه حتى أن الله تعالى قال: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾.

* * *

نَوَائلُ القرآن

• إعجازُ القرآن:

القرآن معجزة متجددة في كل زمان ومكان، حيث حوت بين سطورها معجزات الأنبياء جميعاً، ومن ثمّ فإن الاستمساك به يُحقّق معجزات سائر الأنبياء كما يُجسِّد هداياتهم؛ إذ أن القرآن (سفينة) النجاة من أمواج الفتن والمحن، وهو (قميص) الأمل الذي يعيد الرؤية للبصائر التي عميت، وهو الإكسير الذي يعيد الخصوبة إلى العقول التي دخلت مرحلة العُقم، حيث يُخرج من ظهر (خريف زكريا) ما يمكن تسميته بـ(ربيع يَحْيى)، وهو يستطيع إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص بإذن الله كما فعل عيسى، ولذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فهو حياة للأرواح وحياة للألباب وحياة للأجساد، حياة للأفراد والمجتمعات، وحياة للأفكار والقيم.

• قُوّة القرآن:

يمتلك القرآن قوة ذاتية هائلة؛ نتيجة تنزله من حكيم حميد، ونتيجة تلبيته لحاجات الفطرة وأشواق الروح، ونتيجة خطابه الراقي الجامع بين الإقناع العقلي والمُناجاة القلبية، ولهذا فإن المشركين عندما طلبوا براهين على نبوة محمد ﷺ كآيات من سبقه من المرسلين، قال لهم الله: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وبسبب هذه القوة الذاتية أوجب الله على المسلمين إيصال صوته إلى الناس، حتى قال عن المشركين: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]، وإذا سمع هؤلاء القرآن فقد تَبيَّن لهم الرُّشد من الغيّ، حيث لا مجال للإكراه في الدين، بل هي الحرية والاختيار، وفي مناخ الحرية لا يمكن لفكرة مهما كانت أن تتغلب على القرآن، فهو مهيمن على سائر الكتب والأفكار، بإحكامه وحكمته، بشموله وعالميته، بفطريته وبساطته!

• تقطيع أوصال الدين:

الإسلام دين شامل ومنظومة متكاملة، ولا يعطي ثماره الجَنِيّة إلا بأخذه كله غير منقوص، وعندما تتقطّع أوصالُه فإنه لا يعطي ثماره فقط بل ربما انتقم ممن صنع به هذا الصنيع، فلقد أوصى الله المسلمين بأن يعبدوه كأمة واحدة وقال عن من لم يلتزموا بهذه الوصية: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الأنبياء: ٩٣]، وذلك كما نرى في عصرنا، فقد قطَّعت أمر الإسلام فِرَقٌ عديدة من المسلمين، فمنهم من أخذ قطعة العقيدة بلا شريعة، ومنهم من أخذ قطعة الشريعة بلا عقيدة، ومنهم من أخذ الأخلاق بلا عقيدة ولا شريعة، والمصيبة الكبرى أن كل فرقة تحتكر الحقيقة وتختزل الإسلام في القطعة التي أخذته !

* * *

قانونُ النِّسْبيّة

• نسبيةُ الكلاب:

الكلب من الكائنات المحتقرة عند عامة البشر، لكن القرآن يعطينا درساً في وجوب استحضار النسبية والبعد عن الأحكام الحَدِّيّة، فالكلب في الأصل كائن ذميم؛ ولذلك شبّه الله به عالم السُّوء الذي انسلخ من آيات الله فأخْلَد إلى الأرض واتَّبع هَواه: ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ .. ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وهو كائنٍ نجس ولذلك حرّم الإسلام أكله بل وأكل اللحم الذي ولغ فيه، باستثناء الكلب المُعلَّم وهو الذي يُدرّب على الاصطياد بدن تنجيس اللحم بلُعابه، وفي هذا تنويه بشرف العلم الذي رفع الكلب إلى هذه الدرجة.

ويكتسب الكلب قيمته من البيئة التي يعيش فيها والسادة الذين يَحرسهم، ولهذا صار كلب فتية الكهف عَلَماً ذكره القرآن وشرّفه برفقتهم عندما قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢]، ونلاحظ كيف صار هذا الكلب لصيقاً بهؤلاء الفتية المؤمنين كأنه واحد منهم، جزاءَ حراسته لهم في حلّهم وترحالهم، وحتى في الكهف فقد ظل ثلاثة قرون وهو باسطٌ ذراعيه بالوصيد!

• نسبيةُ الأيام:

قال تعالى عن قوم عاد: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ..﴾ [فصلت: ١٦]، لا شك أن هذه الأيام التي هبّت ريحُها حاملةً الخزي لقوم عاد، كان في طياتها نسائمُ السعادة والاغتباط على هود ومن آمن معه، فهي النِّسْبية التي تَحْمل أقدار الله المتنوّعة وفق ما يختاره الناس لأنفسهم من إيمان أو شرك، وما يذهبون إليه من شكر أو كفر، متقلبةً بين السعادة والشقاوة، وحاملةً لمشاعر السعد أو النحس.

• العلم الذي لا حدود له:

إن العلم بَحْر لا ساحل له، ومهما يكن حظّ المرء من العلم فإنه يظل قليلاً، مقارنةً بخارطة العلم المتاحة لعامة البشر فضلاً عن قياسه بعلم الله، وقد علّمنا القرآن درساً على يد نوح عليه السلام، أطول الأنبياء عمراً ودعوة، فإن هذا العمر الطويل والرسالة الممتدة لم يُمكّناه من معرفة كل شيء، ولهذا خلط بين أواصر الدم وروابط الروح عندما نادى ربه بأن ابنه من أهله، فقال له تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦-٤٧].

• مراعاةُ الواقع:

في مراعاة الإسلام لتقلبات الزمان والمكان قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وكان يمكن أن يستغني عن كلمة منكم وتبقى الجملة صحيحة، لكن منكم هنا تفيد معنىً إضافياً يشير إلى أن تعدد الشرائع والمناهج كان مراعاة لتركيبات الناس المختلفة ولظروفهم الواقعية المتغيرة، ومن ثم فإن الآية تؤصِّل لفقه الواقع، وتجعل من التعدد أمراً فطرياً ومن التنوع أمراً ضرورياً للتطور ومراعاة مصالح الناس!

* * *

سَبائِكُ النِّسْبيّة

• نسبيّةُ الأجَل:

كلمة الأجل تعبير عن الوقت المعلوم، لكن القرآن يستخدمها بطريقة نسبية لا حَدِّية، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ [الطلاق: ٢]، وهنّ النساء اللواتي تعرّضنَ لطلاق رجعي، كأنه يقول: «إذا شارفت المرأة على نهاية العدّة فأعيدوها إلى حظيرة الزوجية»، وبذلك يكون التأديب قد أدى مفعوله مع الإبقاء على عرى الأسرة، ومن المؤكد أن المرأة إذا انتهت عدتها فلا سلطة للرجل عليها ولا يمكن إعادتها إلا بعقد جديد بشروطه المعروفة، والوجه الآخر لنسبية الأجَل هو قوله تعالى: ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، أي إذا انتهت عدّتهن فلا تمنعوهن من التصرف بأنفسهن، والنداء هنا لأولياء أمورهن الذين قد يمنعوهن من مراجعة أزواجهن بعد كمال العدة، بينما الخطاب الأول للأزواج، والشاهد أنه استخدم لفظ الأجل بمعنيين مختلفين في موضعين متقاربين جداً.

• نسبيةُ الجهل:

كما أن العلم نسبيٌّ وفق قاعدة: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦]؛ فإن الجهل نسبي أيضاً، ولذلك قال الله لحبيبه محمد ﷺ: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وهو أعلم الخَلْق طراً، وذلك عندما اندفع بكل مشاعره ومناشطه قاصداً هداية الناس جميعاً، حتى كاد أن يُهلك نفسه من الهَمّ والغَمّ، فقال له تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥]، أي لا ينبغي أن تجهل أن الهداية بيد الله وحده، وأنه لو شاء لهداهم جميعاً، لكن مشيئته اقتضت بأن يترك لهم حرية الاختيار: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، ومن ثم فإن انقسام الناس بين الإيمان والكفر سيظل قائماً إلى قيام الساعة.

• بابُ التغليب:

علّمنا القرآن أنه بالإمكان إطلاق الجزء وإرادة الكل من باب التغليب، عندما يكون العضو المطلق هو الأبرز في الوظيفة المشار إليها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ذلك أن الأيدي هي الوسيلة الأساسية للكسب، مع إمكانية التكسب بواسطة أعضاء أخرى كاللسان والحنجرة والعين والقلب، وقال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] مع أن مراده تحرير الشخصية كلها، ذلك أن انتصاب الرقبة هو العلامة الأبرز على الحرية، وانكسارها هو ثمرة العبودية، وقوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]، وهو الأنف، لأن شموخ الأنف هو آية العِزّة، مع أن للعزّة علامات أخرى في شخصية الإنسان، لكن أبرزها هي الأنف، وهذا كله من باب التغليب، وهي من صور النسبية في القرآن.

• نسبيّةُ الدعوة:

في بعض الظروف يقتضي الأمر أن يمارس الداعية دوره بشكل غير مباشر، كما فعل مؤمن آل ياسين عندما جاء من أقصى المدينة يسعى لنصيحة قومه الذين كذَّبوا الرسل، فدعاهم إلى اتباعهم جامعاً بين الدعوة المباشرة وغير المباشرة، حتى كأنه يخاطب نفسه، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ..﴾ [يس: ٢٠ - ٢٥]، فخاطبهم مرتين وخاطب نفسه أربع مرات، وفي آخر المرة الرابعة طرق أسماعهم بقوة فقال: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥]، وهنا نراه قد قال لهم: «ربكم» ولم يقل ربي، وذلك ليعلموا أنهم معنيون مثله بالإيمان، وأن الله رب الجميع وليس ربه وحده، ثم إنه قد آمن من قبل لكنه في إعلان إيمانه هنا إنما يدعوهم بصورة غير مباشرة إلى الإيمان.

* * *

نِسْبِيّاتٌ قرآنية

• الحُبُّ النِّسْبيّ:

يُرغّب الإسلام أهله في تحصيل زينة الدنيا، ويُحبّذ لهم الاستمتاع بطيباتها أكلاً وشرباً ولبساً وركوباً وسكناً وغيرها، ولكنه يُحذّرهم من الوقوع في حُبها حتى لا تَسكن قلبه، أما الحُبّ الذي لا يقف أمام تطبيق أوامر الله ولا يَحول دون اجتناب نواهيه، فإنه شعور طبيعي ولا حرجَ فيه، ولذلك وصف الله بعض الصحابة بقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، حيث ذكر أنهم يُحبون الطعام نظراً لحاجتهم إليه، لكن ذلك الحُب لم يَحل دون التصدق به، إذ دفعهم حُبّ الله الأكبر إلى إيثار غيرهم به !

• نسبيةُ الجدل:

قرّر القرآن الكريم أنه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [غافر: ٤]، فهل كل جدل كفر؟ وهل يُذمّ الجدل دوما؟

بالتأكيد أنها ليست دعوة للقطيعة النهائية مع الجدل، فهو هنا يذم الذين يجادلون «في آيات الله»، وليس الذين يجادلون بآيات الله، ذلك أن جدال أعداء الإسلام بآيات الله هو من الجهاد الكبير الذي أمر الله به، فقال: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أي بالقرآن الكريم، ويظل الجدل أسلوباً من أساليب الدعوة الهامة، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وهل هناك أحسن من معاني القرآن ومن أساليب الفرقان في المُحاجَجة والإقناع ؟

• سَكْرةُ الفَزَع:

هناك سكراتٌ عديدة في حياة الناس، ومنها سكرة الخمرة، وسكرة الفزع، وسكرة الموت، وسكرة الشهوات، وسكرة التقليد، وعن سكرة الفزع قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، إنها سكرة الفزع من الاضطرابات الكونية عندما تتكوّر الشمس وتتكدّر النجوم، وحينما تُسيَّر الجبال وتتسجَّر البحار، هذا الفزع الذي يَحشر الوحوش من مراقدها، ويُسقط الأجِنّة من بطون أمهاتها، رغم أنها ليست مكلفة، فكيف بابن آدم الذي حمل الأمانة وفرّط بها ؟!

• العداءُ ملَّةٌ واحدة:

مع وجود فروق نسبية في عداوة الأفراد المنافقين للمؤمنين، إلا أن الحذر ينبغي أن يكون حاضراً في التعامل معهم، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، حيث وضَعَهم جميعاً في قالب «العدو» بالمفرد كأنهم شيئ واحد، مع أنهم كثيرون كما توضح صيغة الجمع الواردة في كلمتي: ﴿هُمُ﴾ و ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾.

• نسبيةُ الخطأ:

الخطأ هو عكس الصواب، وهو مفهوم نسبي يضم كل ما يضاد الصواب والحق والعدل، ويبدأ من الاجتهاد عدم الدقيق، وينتهي بارتكاب الجرائم الفظيعة واقتراف الموبقات الكبيرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، وهؤلاء لم يتركوا خطيئة إلا وقارفوها، ولم يعرفوا جريمة إلا واجترحوها؛ مما يؤكد نسبية مفهوم الخطأ.

* * *

أفْيَاءُ التّفاؤل

• الطموحُ بالرِّيادة:

وصف القرآن الكريم المؤمنين بصفات أساسية عديدة، ومنها التفاؤل بالمستقبل والطموح بالوصول إلى الريادة للمتقين، فقال تعالى عن دعائهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، ولارتباط الإمامة بالتقوى فإن المعنى يشمل إمامتهم في الشعائر كالصلاة والصيام والحج، وإمامتهم في القيم كالعدل والعلم والوحدة والحرية، وإمامتهم في ميادين العمل والجهاد، أو ما أمكن من هذه المجالات.

وما يهمنا هنا هو أن القرآن يَحضّ المؤمنين بهذه الطريقة على أن يكونوا متفائلين طموحين؛ كما قال ﷺ: «**إذا سألتم الله الجنة فسَلُوهُ الفردوس الأعلى**»، والإمام هو الذي يقود مَن بعده نحو فَرْدَسَة الحياة بقيم الإسلام الراقية وتَزهيرها بأخلاقه الحسنة، وذلك من خلال عمله الدؤوب الذي يجعله قدوة حسنة وقائداً متبوعاً.

• البحثُ عن سواء السبيل:

إن التفاؤل وحُسن الظن بالله يساعدان المسلم على أن يسير في الطريق الصحيح، فهذا كليم الله موسى عندما خرج يَهيم على وجهه خائفاً يترقّب، سار في الطريق المؤدي إلى مَدْيَن دون أن يدري وقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، ولقد كان ربه عند حسن ظنه به فقد وصل إلى مدين، وهناك قابل نبي الله شعيباً فطمأنه وبَشَّره، واحتضنه كوالده، وأكمل له نصف دينه بتزويجه بإحدى ابنتيه، وفي رحلة عودته إلى مصر مع أهله رأى نارا فتفاءل وهو ذاهب إليها لعله يجد من يوضح له الطريق إلى مصر فلقي ربّه الذي أبان له الطريق إلى مقام كليم الله وإلى الجنّة!

• ثمرةٌ التفاؤل:

التفاؤل شجرةٌ طيبةٌ ثمارها، وفي القلب ينبغي أن تُزرع هذه الشجرة، فهذه امرأة فرعون آسيا بنت مزاحم نموذج للمتفائلين، حيث تأمّلت خيراً بطفل وجدوه في اليَمّ، عندما قالت لفرعون: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص: ٩]، وقد نفعها أيّما نفع، لأنه صار سبب هدايتها من الضلالة ونجاتها من النار!

• النجاة الخارقة:

إن ما يَحدُث للأنبياء من نجاة من المؤامرات والمعضلات التي يقعون فيها، بعد أن يستنفذوا الأسباب كلها، ليس حكراً عليهم دائماً، بل يمكن لمن اتخذ ذات المُقدمات أن يَحصل على نفس النتائج، ولذلك عندما تَحدَّث الله عن نجاة يونس قال: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴾، ثم قال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، مما يفتح للمؤمنين أبواب الأمل في أن الله لن يتخلّى عنهم ما داموا متصلين به دوماً، حتى ولو نَفِدت أسباب الأرض وسُننها الجارية؛ ذلك أن أسباب السماء وسُننها الخارقة لا تنفد ولا تعجز!

* * *

سَجَايا قيادية

• الإيجابية:

لا يمكن أن يكون القائد الحق سلبياً، حيث تجري الإيجابية في عروقه وتنمو في خلاياه، فهو لا يُغمض عينيه عن واقعه، إذ يتساءل كلما رأى أوضاعاً غريبة أو غير سليمة، فهذا كليم الله موسى الذي اصطنعه الله لنفسه وربّاه على عينه، فأعدّه كقائد في بيت أطغى طغاة الأرض، عندما ورَد ماءَ مَدْيَن وجد جماعة من الناس يَسقون من إحدى الآبار، ووجد من دون هؤلاء فتاتين تذودان غنمَهما حتى لا تستقي مع غنم القوم، فلم يتجاهل موسى هذا المشهد وإنما قال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣]، وعندما أخبرتاه بالقصة قام فسقى لهما.

ومن يتمعّن في حقيقة قتله للفتى القبطي سيجد أنه كان عرضاً غير مقصود لهذه الإيجابية التي تَهُبّ لنصرة المظلوم وإنجاد الملهوف، عندما استنجد به الذي من شيعته ضد عدوه، وتدخّل موسى في هذا الحادث رغم أنه دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، ويُفترض أن يمشي بهدوء وتخَفٍّ حتى لا يلفت إليه الأنظار، لكن مشهد الرجل المصري المُتجبِّر وهو يهاجم فتى من بني إسرائيل استفزه ودفعه للتدخل.

• القُوّة المُزدوجة:

كان موسى قوي النفس والجسم، وكان لقوتيه الجسمانية والنفسية تجليات غير مقصودة، كما فعل عندما وكز القبطي ليمنعه من الاعتداء على الإسرائيلي، لكنه قضى عليه بسبب هذه القوة البالغة والشجاعة الخارقة.

وتجلت هذه القوة في مراحل حياته كلها، مثل مشهد رفع الأحجار عن البئر عندما سقى لابنتي شعيب، ولذلك قالت البنت لأبيها بانبهار: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، أما القوة النفسية فقد بلغت حداً دفع بموسى لطلب رؤية الله تعالى عياناً.

• صرامة الرقابة على النفس:

من صور القوة النفسية التي تَميَّز بها موسى عليه السلام وهيّأته ليكون قائداً لأمة في معركة تحريرها من العبودية والشرك، صرامته الشديدة مع نفسه، ومحاسبته الأكيدة لها، فعندما وَكَز المصري وقضى عليه قال على الفور وبدون أي فاصل: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ..﴾ [القصص:١٥-١٦]، ونلاحظ هنا حضور وعيه رغم غضبه الذي دفعه لاستعمال يده ضد المصري، حيث لم يستغرق وقتاً حتى يكتشف خطأه، ثم إنه لم يُحمِّل الشيطان المسؤولية وحده، لكنه وازن بين الداخل والخارج، حيث قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾، وفي ذات الوقت تَحمّل المسؤولية فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦].

• التوبةُ الوقائية:

عندما قتل موسى المصري بدون قصد، استجمع قوته العقلية والروحية واعترف بأنه ظلم نفسه، وهذه هي التوبة، ثم طلب المغفرة من الله، وعندما أنعم الله عليه بالمغفرة مدّد توبته إلى المستقبل على منهج «الوقاية خير من العلاج»، حيث تعَهّد بأن لا يقف نصيراً لأي مجرم في أي ظرف: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص: ١٧].

ولا شكّ أن هذا الأمر يحتاج إلى يقظة روحية ونباهة عقلية، بحيث يمنع الفساد من الخروج من رَحِم الأسباب، ويَحُول دون اشتعال نيران الفتنة، وذلك بإطفاء أسبابها في مهدها وتحويل جُمورها إلى رماد.

* * *

خِصالُ القائد

• القضاء على أسباب الفتنة:

عندما عاد موسى عليه السلام من ميقات ربه ورأى قومه قد افتتنوا بعبادة العجل؛ عمل بكل قوة وشجاعة وبصرامة وسرعة من أجل القضاء على هذه الفتنة، واقتلاع أسبابها من الجذور وطمس أعراضها بدون هوادة.

حيث أخذ برأس أخيه هارون يَجُرُّه إليه بحُكم أنه المسؤول الذي عيَّنه عليهم، ولم يتركه إلا بعد أن أوضح له أنه قد راجَعَهم حتى كادوا يقتلونه، وأنه لم يفارقهم خوفاً عليهم، من التفرّق وحرصاً على بقاء الجماعة حتى يعود موسى، وفضح السامريّ أمام الناس ثم طرده من بين أظهرهم داعياً عليه بالبلاء، ثم ناقش القوم حتى أفحمهم بل وطالبهم بالتوبة التي كانت تقوم على قتل النفس: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ..﴾ [البقرة: ٥٤]، وأخذ بعدها العجل وحرَّقه، ثم أخذ الرّماد وذرَّه في البحر، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]، وبذلك فإنه لم يُبقِ ذرَّة واحدة يمكن أن تُذكِّر أصحاب النفوس السقيمة بهذه الفتنة، وكم في عصرنا من عقول تَعبُد عُجولاً دون أن تجد موسى الذي يتصدّى لها بقوة وحكمة ويَنْسفها في اليَمّ نسفاً.

• الشخصية (الكارِزْمية):

كان موسى عليه السلام صاحب شخصية (كارزمية) آسرة، حيث كان وسيماً وضيئاً، يجذب الأنظار ويستهوي القلوب، وهذه من عطايا الله له حتى يكون قائداً، فقد قال تعالى عن هذه الخصلة: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]، فقد صنعه الله على عينه، وجعل القلوب تهفو إليه، ولم يكن ينقصه سوى الفصاحة، حيث

كان يعاني من لثغة في لسانه، قيل إنها بسبب الجَمْرة التي وضعها في فمه في الامتحان الذي وضعه له فرعون عند طفولته.

• الغضب المحمود:

كان موسى صاحب عاطفة قوية تتدفّق كالشلاّل، وإذا اجتمعت العواطف القوية مع العقول السّوية، تَكوَّنت القوة النفسية التي تَخلُق الشجاعة وتدفع نحو الإقدام.

وقد ظهر غضب الكليم بصورة محمودة في مواقف كثيرة، ومن أهمها غضبه من قومه عندما عاد وقد عبدوا العجل، حيث أطفأ نار الفتنة كما لم يفعل هارون عليه السلام الذي كان ودوداً وحريصاً على وحدة القوم!

• عزيمة الصبر:

لم يكن موسى عليه السلام يصبر على ضيم، وكان شديد الصرامة في محاربة المنكرات، لكنه كان صبوراً في معالجة الاختلالات، حليماً في تقويم الاعوجاجات، ولم يكن في عجلة من أمره إلا عندما ذهب لميقات ربه، حيث جاء قبل الموعد مُتسلّحاً ب: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

ولهذا كان من أولي العزم الخمسة الذين امتلكوا صهوة الصبر واعْتَلَوا ناصية الأناة، حتى قال الله تعالى لحبيبه محمد: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، حيث العلاقة الوثيقة بين الصبر والعزيمة، وعندما تعرّض محمد ﷺ لبعض أصناف الأذى فقد تَصبَّر متسلياً بسيرة موسى حتى قال: «**يَرحم الله موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا فصَبَر**»، [كما ورد في صحيح البخاري].

وبجانب أذى الفراعنة فقد تعرّض لصنوف من أذى أهل التدين المغشوش، حيث رماه قومُه بنو إسرائيل بكل نقيصة واتهموه بكل كبيرة، حتى أن الله خاطب المؤمنين من أمة محمد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

أعْمِدَةُ الفَرْعَنة

• التسلُّط على القلوب:

ما يزال طغيان الفراعنة يتصاعد ويتعاظم حتى يصل إلى التسلط على القلوب، إن لم يجد من يتصدى له بقوة وحكمة، فلقد قال فرعون لسحرته الذين آمنوا بموسى بعد أن ابتعلت عصاه أحابيلهم السحرية: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ..﴾، ذلك أنهم في عُرفه مِلْكاً له ولا يحق لهم أن يؤمنوا - والإيمان شعور قلبي - حتى يأذن لهم هو، أو ليس بربهم الأعلى؟!

• الكذب الصُّراح:

لا يتورع الطغاة عن الكذب بكل بجاحة أمام الملأ، ومن أمثلة ذلك قول فرعون للسَّحرة بعد أن آمنوا بموسى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، فقد زعم أن موسى كبير السحرة ومُعلّمهم، وأنهم اتفقوا مع بعض في الخفاء لعمل هذه المسرحية، هذا رغم علم الناس أن السحرة هم من بطانة فرعون المقربين وأنه قد وعدهم بمزيد من القرب بعد انتصارهم على موسى!

• التسلُّح بالملأ:

مهما كانت (كارزمية) الفرعون فإنه لا يستطيع تعبيد الناس له بمفرده، ولذلك فإن كل الطغاة يتخذون بطانات تمارس سائر فنون الإغراء والإغواء مع الجماهير، وتحاول (ملئ) قلوب المواطنين بخشية الفرعون وهو التعظيم المصحوب برهبة، وهذا ما فعلته بطانة فرعون، ولذلك سماهم القرآن بـ (الملأ)، لأنهم ملؤوا قلوب المصريين بالرغبة بما في أيدي فرعون والرهبة مما يمتلك من سلطة وسطوة.

وبسبب الدور الخطير الذي لعبه الملأ فقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وملئه، كما ورد في صريح القرآن، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: ٧٥].

ولقد لعب هذا الملأ دوراً إجرامياً مزدوجاً، فقد عبّدوا الجماهير لفرعون، ثم حرّضوا الفرعون ضد الأحرار الذين لم يَدخلوا بيت الطاعة ولم يَنضمّوا إلى القطيع، ومما رواه القرآن من تحريضهم قولهم: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ..﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وبسبب هذه الشراكة بين الفرعون والملأ وسَير الجنود خلف هذه الثُّلة المجرمة؛ فقد حكم الله عليهم بالخطأ المطلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ [القصص: ٨]، أي خاطئين في تصوراتهم وتصرفاتهم.

وبجانب الوزراء والأعوان فإن بطانة فرعون قد تكوَّنت من السحرة والكهنة الذين عبَّدوا العامة لفرعون، وهذا ما يفعله اليوم الاعلاميون الذين صاروا سحرة العصر، وعلماء السوء الذين لعبوا دور الكهنة في تأصيل وتسويق إجرام الطغاة!

• ثقافة القطيع:

عندما تُعطِّل الجماهير عقولها وأسماعها وأبصارها، فإنها تصير كالأنعام؛ إذ تسير وراء كل ناعق وتتبع كل دعي، فكيف إذا كان الناعق يمتلك شتى وسائل الإغراء والإغواء؟ ويستحوذ الدّعيّ على كافة أدوات الترغيب والترهيب؟!

لقد روى القرآن أن فرعون استخف قومه فأطاعوه، وأنهم بذلك قد صاروا قوماً فاسقين: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]، فقد خرجوا عن قواعد المنطق، وتمرّدوا على قيم الفطرة، وانقادوا وراء إنسان مثلهم مارس الإجرام بحق بعضهم وجعلهم شيعاً ينشغل بعضهم ببعض؛ حتى يستقر له الكرسي، ووصل عُلُوَّه عليهم إلى حد زعمه أنه لا يُريهم إلا ما يرى، ثم ادعى أنه ربهم الأعلى وأنه لا إله لهم سواه!

ومن هنا فقد صاغ الأدب الشعبي هذه الأمثولة، إذ قيل: «ما الذي فَرْعَنَك يافرعون؟ قال:سكوت الناس على ما أصنع» !

وفي الحقيقة فإن عبيد اليوم لا يَسكتون على أفاعيل الطغاة فقط، وإنما يُزيِّنونها ويُؤصِّلونها، فيَهْجُون الحقَّ ويَتغَنَّون بالباطل!

* * *

طبائعُ الفَراعنة

• ثقةُ الطغاة:

يزداد طغيان الفراعنة عندما يَركبون صَهْوة غرورهم، وحينئذٍ فإنهم يسيرون نحو حتفهم، معتقدين بكل ثقة أنهم ذاهبون للقضاء على خصومهم، وأبرز مثال على ذلك هو فرعون، فقد دفعته ثقته بنفسه إلى السير نحو حتفه المعنوي عندما حشد السحرة لإحراق موسى، حيث طلبوا بكل ثقة من موسى تحديد موعد للمبارزة فحدّد لهم يوم الزينة؛ فكانت فضيحة فرعون الإله الذي عجز سَحَرتُه أمام موسى، ثم كفروا بفرعون عندما آمنوا بموسى أمام الجماهير، وامتطى صهوة غروره مرة أخرى عندما خرج موسى وقومه من بين أظهر المصريين، حيث خرج وراءهم معتقداً أنه سيقضي عليهم قضاءً مُبْرماً بجيشه الضخم، وفي البحر كان هلاكه المادي بعد أن هلكت شخصيته المعنوية يوم الزينة!

• الاتِّكاء على العَصَا:

تواطأ البشر على استخدام العَصَا والسيف كرمزين للقوة، ولا شك أن الطغاة يَتَّكؤون في جبروتهم وقهرهم لشعوبهم على تلك العصيّ الغليظة ويُمزقون كرامات الناس وحقوقهم بتلك السيوف الحادة، ومن المؤكد أن فرعون موسى (رمسيس الثاني) هو أطغى من استخدم العصا في مواجهة تطلعات الناس للحرية والكرامة، ولهذا احتلت قصته مساحة واسعة في خارطة القصص القرآني، كما لم يحدث لأي طاغية آخر.

وعند حلول العقاب قمعه الله بعصا صغيرة كانت بيد موسى، فهي التي قتلته القتلة المعنوية يوم الزينة عندما رماها موسى فابتلعت أحابيل وعِصيّ سحرته، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو

بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٦-١١٩]، وهي التي قتلته القتلة المادية عندما أمره الله تعالى أن يضرب بها البحر فانفلق، ودخل موسى وقومه حتى وصلوا الشاطئ الآخر، بينما غرق فرعون وجنوده في لُجَج البحر وصاروا عبرة للآخرين.

• امتلاكُ البلاد والعباد:

يعتقد الفراعنة أنهم باعتلائهم لكراسي المُلك يمتلكون كل ما في بلدانهم من بَشر وخيرات وطاقات، وقد طرح فرعون على قومه هذا الأمر كمُسلَّمة انطلق منها في إقناعهم ببطلان دعوة موسى ودعواه، حيث قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٥١].

• التألُّه الهَرَمي:

في المجتمع الذي يتربَّب فيه الكبراء على الصغار ويتكبر الأقوياء على الضعفاء، ينبعث من بين هؤلاء من يتألّه على الناس، كفرعون الذي قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]، كأنه بوصفه لنفسه بالأعلى يُقر بوجود أرباب دونه، وهذا ما كان يحصل في المجتمع المصري، إذ كانت توجد تحت قدمي رؤوس هامان وقارون وغيرهما من المتربين على الناس والمُعبِّدين أنفسهم لفرعون وهؤلاء كانوا يضعون أقدامهم على هامات الذين تحتهم وهكذا، وعندما يَسْبح خيالي في تصور الحالة السائدة في ذلك المجتمع المصري الغابر أتخيل التربُّب على شكل هرم، حيث يقف على رأس الهرم الفرعونُ الأكبر الذي يَعُدّ نفسه ربَّ المُتربّين على الناس، وتفصل بين فرعون وبين الطبقة السّفلى طبقات ممن أدمنوا العبودية لمن هو فوقهم والتألُّه على من هو تحتهم !

* * *

اسْتِعلاءُ الفَراعنة

• عُقدةُ الفَوقية:

كان فرعون مصاباً بعُقدة الفوقية وفق النظام الهرمي الذي أرساه في مصر، حيث يقف الفرعون في القمة على جماجم وأكتاف مَن تحته، وتحكَّمت هذه العقدة بسلوكياته كلها، وفي سياق علاقته ببني إسرائيل الذين كانوا نازحين في مصر بسبب القَحْط والجَدب في بلادهم قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، ويتضح من النص أنه يُوجِّه قومه لكي ينطلقوا في تعاملهم من ذات المنطق الاستعلائي، ولقد أكد الله هذه العُقدة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، ونلاحظ استخدام أدوات التوكيد ٤ مرات في هذا الجزء من الآية، مما يؤكد تجذّر عقدة الفوقية وطغيان مشاعر الاستعلاء.

• عُلُوَ التفريق:

مهما كان الفراعنة جبابرةً فإنهم يظلون بشراً يَتّسمون بسائر صفات الضعف البشري، وإنما يَبنون قوتهم من ضعف المجتمعات، ويُقيمون جبروتهم على جُبن الناس، ويَصنعون استبدادهم من اسْتخذاء الجماهير، وهذا ينطبق على كل الفراعنة من رمسيس الثاني الذي تَجبَّر على بني اسرائيل وطغى على موسى إلى فراعنة اليوم، سواء تدرّعوا بأسمال المَلَكيات أو تجمّلوا بثياب الجمهوريات!

نستنبط هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص:٤]، فقد ربط القرآن بين العلو الفرعوني وبين تقسيم الجماهير إلى شيع وأحزاب، تشغل وقتها ببعضها، وتصرف طاقتها في مواجهة غيرها، ليتربع على أكتافها الفراعنة الذين يقتاتون من كرامة الناس، ويُغذّون عُلوّهم بتسفّل المواطنين!

• العُلوّ الأكبر:

ما فتئ الطغاة يُغذّون غطرستهم بصَغار محكوميهم، وما زالوا يُذْكون سيرَهم نحو التكبُّر والتجبّر من خلال تهافت العامة وسقوطها تحت أقدام هؤلاء، حتى إن بعضهم قد يصل إلى درجة التألّه، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٤]، ويبدو أنه كان يعترف في هذه المرحلة بآلهة دونه، وتؤكد المصادر التأريخية أنه أبقى عبادة حورس وأوزوريس وصنجور، ونصَّب نفسه الرب الأعلى، لكنه في مرحلة تاليةٍ تَفردَّ بالألوهية وحده عندما قال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، وهكذا فإن الطغاة الذين يَعتلون هامات الناس بدون اعتراض، ويَمتطون ظهورهم بدون إنكار، لابد أن يصلوا إلى التألُّه ولو لم ينطقوها بلسان المقال كفرعون، لكن لسان الحال يقول كل شيء كما نشاهد طغاة عصرنا !

• جزاءٌ الاستعلاء:

من يتدبر القصص القرآني يجد أن قاعدة: «الجزاء من جنس العمل» حاضرة بقوة وفاعلية في كل حين، فهذا فرعون الذي تَحكَّمت به عقدة الفوقية وهامت به في أودية الطغيان، حتى أنه في استخفاف عقول قومه وتحريضهم ضد موسى وقومه يقول: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف: ٥١]، فقد غرق في لُجّة البحر وأجرى الله المياه من فوقه!

* * *

هَواجِسُ الجَبّارين

• ضعفُ القوة:

إن تصاعد طغيان الفراعنة يحمل في طيّاته برهان ضعفهم وآية خوفهم، وكلما اسْتَعر الطغيان انفضح للجمهور ضعف الطغاة، فقد رأينا أن فرعون اختار أمهر سحرته وهم من (الملأ) الذين كانوا (يَملؤون) قلوب المصريين بحب فرعون ويُدهقونها بالرهبة منه، وذلك عبر سحرهم الفاتن وأكاذيبهم المزخرفة، لكنهم أدركوا يوم الزينة أن ما فعله موسى كان معجزة خارقة تدل على أنه مرسل من السماء، فسارَعوا لاعتلاء ناصية الإيمان، ولخوف فرعون من تأثر الجمهور بهذا الانتقال المُدوّي فقد هدّد وتوعّد، واستخدم بالفعل أقسى أدوات القمع والقتل، ولم يَزده ذلك رهبةً كما اعتقد وإنما دفع السحرة للمجاهرة بكل قوة بأنه على باطل وأن موسى على حق، قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧١-٧٣]، وهذا يعني أن الطغاة كلما شعروا بقوة الضَّعف لجؤوا إلى مضاعفة القوة، لكنها لا تزيدهم إلا وبالاً وخساراً.

وقد رأينا كيف بدأت هذه المُبارزة والسحرة يُقْسمون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، بينما انتهت وهم يقولون: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾.

• خوفُ الجَبّارين:

مهما كان جبروت الطغاة فإن قلوبهم تمتلئ بالمخاوف ونفوسهم تكتظّ بالهواجس، ولا تزال حياتهم تزخر بأسباب الحذر ومظاهر التوجّس، وعلى رأس هؤلاء أطغى

طغاة الأرض فرعون وملئه، فقد أشار القرآن إلى هذا الخوف في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦]، وترسم لنا الفاصلة القرآنية : «ما كانوا يحذرون»، ذلك التوجس الجماعي الذي لم يكن عابراً وإنما كان مستقراً في قلوبهم ساكناً في أفئدتهم، حيث يتنقل معهم أينما ذهبوا، حتى أصبح كل واحد منهم يجاهر بخوفه وترقبه، فيتبادلون المخاوف، ويرسمون الخطط لتجفيف منابع الخوف، وعلى رأسها خطة: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٧]!

• سُجونُ الفراعنة:

إن وضع أهل الحق وأصحاب الآراء الحرة في السجون، طبيعةٌ فرعونية قديمة، وقد وُلدت في مصر وترعرعت حتى أصبحت سجية بارزة من سجايا معظم حكام مصر، فلقد وضع هؤلاء يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين، مع علمهم ببراءته بالبرهان الخارق، وعندما جاء موسى إلى فرعون يطالبه بإطلاق بني إسرائيل ويخبره عن الله الواحد الأحد، قال له: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وقد ورد لفظ السجن ومشتقاته عشر مرات في القرآن، كلها مختصة بسجون مصر، بل وبقصتي يوسف وموسى!

ولقد ظلت السجون المصرية عبر حقب التأريخ تعُجُّ بالمظلومين وتَزخر بالأحرار، ولو نظرنا إلى هذه الحقيقة في عصرنا هذا من زاوية الأدب المصري لوجدنا لأدب السجون حضورا لا يُضاهَى!

* * *

سَجايا ملكة سبأ

تظل بلقيس ملكة مملكة سبأ اليمنية شاهداً قطعياً حاضراً في القرآن على ذكاء اليمنيين، ذلك أن الحاكم إنما هو متوسط للقيم التي يحملها الشعب ومنها قيمة الذكاء، وتظل شاهدةً على تقدير اليمنيين للمرأة في ذلك العصر الموغل في القدم، والذي كانت المرأة توأد فيه عند الأعراب، بل كان الأوربيون يناقشون إن كانت المرأة إنساناً كآدم أو أنها من نسل الشيطان، مع العلم أن أعظم ديمقراطيات العالم الحديث وهي بريطانيا لم تُعطِ المرأة حق الانتخاب إلا منذ نحو قرن من الزمان، بينما كانت المرأة ملكة في اليمن قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام!

• الذّكاءُ المُتبادل:

اختبرت ملكة سبأ نبي الله سليمان ﷺ بالهدية: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، حيث أرادت أن تكتشف إن كان نبياً أو ملكاً، واختبرها سليمان بتنكير عرشها بعد أن أحضره الذي عنده علم من الكتاب من اليمن إلى فلسطين: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١]، ذلك أن الهداية في مثل هذه الظروف لا تتحقق إلا للأذكياء الذين يَركبون بُراق عقولهم في البحث عن الحق والحقيقة، ولقد نجح كل واحد منهما في وضع الامتحان الأمثل لمعرفة ما عند الآخر، ونجحا في تجاوز الامتحان بذكاء ودهاء لا نظير لهما.

• قوة المشاورة:

ما زالت الآراء تصطرع والرؤى تتنافس على الوصول إلى الأفضل والأكمل حتى تجعل الأمر محبوكاً وقوياً، إذ ينفث كلُّ صاحب رأي في الأمر من روحه حتى يصبح فتياً قوياً، وهذا ما أشارت إليه عبارة: ﴿أَفْتُونِي﴾، والتي اشتُقَّت من باب الاستعارة

من الفتى في السّن والبالغ قوته وعنفوانه، وذلك في قوله تعالى على لسان الملكة بلقيس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل: ٣٢]، ونلاحظ هنا الثقة المتبادلة بين الملكة ورعيتها، فقد وثقت برؤاهم، ووَثِقوا هم برجاحة عقلها وعمق حكمتها عندما أعادوا الأمر إليها وفوّضوها متعهدين بطاعتها: ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل: ٣٣].

• ناصيةٌ الحكمة:

عندما امتطت بلقيس جواد ذكائها، وصلت إلى ناصية الحكمة، حيث صارت عالمةً بطبائع الملوك، ومن رحم هذه الخبرة قالت: ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٤]، ولأن ما ذكرته هنا ينطبق بشدة على عامة الملوك، فقد عقّب الله عليها في فاصلة الآية بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾، بمعنى أن هذه الجملة هي من كلام الله كما ذهب إلى ذلك أغلب المفسرين.

• قُصور العقول:

لو كان العقل وحده يكفي للاهتداء إلى الله، لاهتدت ملكة سبأ بدون الوحي الذي تنزّل على سليمان، فقد ظلت ردحاً من الزمن تعبد الشمس مع قومها من دون الله، رغم عقلها الوافر وذكائها الحاد، والذي يتضح من الوَمضات الصادرة من قصتها المذكورة في سورة النمل، لكنها لم تصل إلى الله إلا عبر رسوله سليمان عليه السلام.

* * *

بَيْدَرٌ العَواطِف

• السُّخرية العادلة:

يتّسم منهج القرآن الكريم بالعدل الدقيق في كل شيء، ومن صُور العدل الشامل العدل في العقوبة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ..﴾ [النحل: ١٢٦].

ويَتمدَّد هذا العدل العقابي من الأمور المادية إلى الأمور المعنوية مثل السخرية، قال تعالى على لسان نوح والمؤمنين من قومه: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، ولاحظْ المماثلة في العقاب في خاتمة الآية: ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾، لأن السخرية في الأصل خطيئة محرّمة، ولكن العدل الصارم اقتضاها هنا، ومن ثم فقد جعلها مماثلة لسخرية البادئ الذي هو المُعتدي، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

• الإنفاق الجائر للمشاعر يُفقدها:

إن الضغط الشديد على المشاعر قد يؤدي إلى فقدانها، ولهذا قال الله تعالى عن يعقوب الذي أطال الحزن على ابنه يوسف: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥].

والحرض هو الحَمأ المَسْنون، كأن الحزن الشديد يؤدي بالإنسان إلى فقدان المشاعر والعودة إلى المرحلة الصلصالية الأولى، وليس المراد بالحَرض الهلاك كما ذهب بعض المفسرين، لأن الهلاك مذكور في خاتمة الآية نفسها: ﴿أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ﴾، مما يؤكد أن النتيجتين مختلفتان!

وهي دعوة لتجنب الإنفاق الجائر للمشاعر، وتوجيهٌ للاعتدال فيها حتى تستمر عيونها في الجَريان!

• الفرح المحمود:

إنما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، لمعرفتهم أن فرحه بالمال كان لاعتقاده أنه ثمرة شطارته وذكائه، كما قال تعالى على لسانه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾. أما الفرح بآلاء الله وأفضاله فإنه فرح مشروع ومحمود، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وينطبق ذلك حتى على العبادات المَحضة، ومن الحِكَم العطائية: «لا تُفرحك الطاعة لأنها برزت منك، وافرحْ بها لأنها برزت من الله إليك»!

• طَرْوءُ الغلظة:

لأن المؤمن رحيم القلب رقيق المشاعر، ولأنه جميل الطبع لَيِّن المعاملة، فقد قال تعالى آمراً إياهم: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وذلك عندما تَحَدَّث عن محاربي المشركين، ذلك أن الغلظة طارئة على المؤمنين، فينبغي أن يَجدها هؤلاء المحاربون، حتى تستقيم موازين العدل ولا يتمادى المعتدون في ظلمهم، لكنها لا قرار لها في قلب المؤمن ولا في ممارساته في الأوضاع الطبيعية.

• فخرٌ مُبْصر:

كم يشعر المسلم بالفخر والغبطة لأنه من أتباع محمد ﷺ وسيبعث يوم القيامة تحت لوائه ويشرب من حوضه، وأولى بهذا الفخر والاعتزاز الدعاة، لكن الشرط الأساس لتحقق ذلك هو اتباعه على بصيرة وعلم لا عن تقليد أعمى وعواطف صماء.

قال تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي...﴾ [يوسف: ١٠٨]، فأتباع محمد هم الذين يسيرون في سبيله الداعي إلى الله على بصيرة، حيث الفقه بما يَدعون، والمعرفة بمن يَدعون، والوعي بالواقع الذي يدعون في أوساطه، مراعين خصوصياته ومستجيبين لتحدياته.

مَعاقدُ القادة

• مَجْمَعُ الفَضائل:

محمد بن عبد الله هو فخْرُ الإنسانية وأعظم رجل أنجبته البشرية، التقت في رسالته أبعاد الرسالات السماوية وتجمَّعت في شخصيته أشتات الفضائل الأرضية، ومع انقضاء الأزمان وانصرام القرون ما زال عنواناً للمحامد وبَيْرقاً للمفاخر.

ولقد صار له القدَح المُعلّى من سوامق الأخلاق، والنصيب الأوفر من بواسق الصفات، ولهذا قال تعالى عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ومع أن خلق إسم جنس يضم كل خلق رفيع، إلا أن إفراده يشير إلى أنه كان بذات السموق والبسوق في سائر الأخلاق، فلا مكان للنسبية البشرية في أخلاق المصطفى الذي صار بسببها محمداً في الأرض عند الخلق، وأحمد عند الملأ الأعلى في السماء.

• الغَضبُ المأجور:

عندما يرى المؤمن ما يَنتهك محارم الله ويتعدّى حدوده فإنه لابد أن يغضب، كما فعل موسى عندما اتَّخذ قومُه من العجل معبوداً مع الله، قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٦]، واستخدم كلمة غضبان وهي من صيغ المبالغة على وزن فَعلان لتدل على شدة الغضب، ذلك أن غضبه من غضب الله تعالى الذي قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وهذا هو الغضب المحمود والمأجور، وربما قصد الإمام الشافعي شيئاً من ذلك عندما قال: «من استُغْضب ولم يَغضب فهو حمار»!

• رجالُ الأمّة:

إن كل من تجتمع في عقله أبعاد القرآن الرسالية، وتأتلف في قلبه أشتات الأمة، هو أمّة بحد ذاته، كمثل الخليل إبراهيم الذي قال الله عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]، ذلك أنه كان مجمعاً لأنواع الخيرات وسبباً لاجتماع الأمة، حيث ظهر حرصه على الأمة حتى في دعائه لمن سيأتي بعد آلاف من السنين.

وكم تحتاج أمتنا في عصرنا لهؤلاء الواحديين الوحدويين الذين يجمعون في أفكارهم الأبعاد الرسالية للأمة، ويَجمعون في أفعالهم أشتاتها الواقعية.

• تبشير القائد:

لابد أن يتحلى القائد بصفة التبشير في التعامل مع جنوده وأتباعه، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧]، فقد تنقّل الأمر الإلهي بين المُثنّى والجَمع والمُفرد بالترتيب، فتَبوُّء البيوت جَعله الله لهارون وموسى، وجَعْل البيوت قبلةً وإقامة الصلاة مطلوبة من جميع بني إسرائيل ولذلك استخدم صيغة الجمع، وعندما وصل إلى فعل التبشير وجَّه الأمر إلى موسى وحده، لأنه القائد ومن خصائص القائد تبشير من يقودهم بما يحبونه حتى يزداد حبهم له وتعلقهم به، وحرصهم على طاعته.

• الاقتداء بالهُدى:

يُعلمنا القرآن أن نقتدي بالهدى لا بأشخاص المُهتدين، قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ولم يقل اقْتدِ بالمُهتدين، ذلك أن الهدى بوصلة ربانية لا تخطئ أما المهتدون فإنهم بَشرٌ ذوُوا هداية نسبية، بل ويمكن أن يَسقطوا في غياهب الغواية إن وَهَت إراداتهم أو انْكسرت عصيّ عزائمهم.

* * *

غيَاهِبُ العصيان

• كبائرُ الكبراء:

يعود سقوط الأمم في مهاوي الانحطاط إلى عوامل داخلية متعلقة بالناس أنفسهم، لكن من يتولى كبر هذا الجُرم هم الكُبراء.

ولهذا فقد لفت الله نظر نبيه محمد ﷺ إلى هؤلاء الكبراء الذين يتحملون الوزر الأكبر من هلاك أممهم فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، ذلك أن كفر الأكابر بنعم الله أدى بهم إلى ارتكاب الكبائر ومقارفة المُوبقات، مما أدّى إلى نزع تلك النعم وسقوط أولئك الناس في مهاوي الهلاك.

• تَشابُه المُجرمين:

لقد تشابهت قلوب المجرمين في كل زمان ومكان، وتشابهت أفعالهم، حتى كادوا أن يصيروا شخصاً واحداً، وقد أوْمَأ الله إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ [التوبة: ٦٩]، فمع تشابه الخوض في الباطل بين السابقين واللاحقين، فإنه جعل الخائضين السابقين كأنهم شخص واحد عندما قال: «كالذي»، مع أنه جمع (خاضوا) والمقصود هو: «الذين خاضوا»، ذلك أن تشابُه تصوراتهم وتصرفاتهم أظهرهم كأنهم شيئ واحد!

• الصَّلْبُ الوَحشي:

عندما آمن السحرةُ بموسى قال لهم فرعون: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١]، وقد تَضمَّن هذا التهديد الفرعوني وحشيةً لا نظير لها، حيث استخدم الحرف (في) بدلاً عن (على)، كأنه يقول بأنه سيجعلهم جزءاً من جذوع النخل، كنايةً عن طول فترة النزيف عليها قبل أن تَنتزعهم رحمةُ الموت من بين مخالب الوَجَع!

• دُعاةُ النار:

إن كل من يدعو إلى غير منهج الإسلام إنما يدعو إلى النار حتى لو لم يقصد ذلك، وهذا ما أشار إليه مؤمن آل فرعون وهو يُحاجج قومه: ﴿ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ ؟! [غافر: ٤١]، فإنهم لم يقولوا له: تعالَ إلى النار، ولكن دعَوه إلى عبادة الطاغوت فرعون، ولا شك أنه سيقدم قومه يوم القيامة ويوردهم النار!

ولذلك فقد حذّر القرآن من كل الطرق المؤدية إلى النار، كما قال تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ... ﴾ [البقرة: ٢٤]، أي تجنبوا كل طريق وكل سبب يوصل إلى النار!

• زَلَلُ الوَسْوَسة:

عندما تستقر وسوسة الشيطان في قلبٍ ضعيفِ العزم وقليلِ التذكر، فإنه يكون عرضةً للزّلل والانزلاق، وهذا ما تومئ إليه الآية التي تقول عن آدم وحواء: ﴿ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ [الأعراف: ٢٠]، في الأعراف ثم: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ [البقرة: ٣٦]، في البقرة.

وعلَّة نجاح الوسوسة في إحداث الزلل هي النسيان وضعف العزيمة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾ [طه: ١١٥].

* * *

صحائفُ المسؤولية

• مسؤولية الطاعة:

في مطلع سورة الأحزاب وجّه الله تعالى أمراً مباشرا إلى نبيه محمد ﷺ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ١-٢]، وهل يُعقل أن يطيع حبيب الله الكافرين والمنافقين؟!

إنه أمر لأتباع محمد ﷺ جميعاً، بدلالة خاتمة الآية الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، حيث قال: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: (بما تعمل)، وبوصفه الأسوة والقدوة ولخطورة موالاة أعداء الله فقد توجّه إليه بالأمر المباشر، فهو مسؤول عن من يقودهم، ثم إن الله أودع في فطر الناس استعداداً للسير خلف القائد، ومن ثم فإن صلاحه يساعد في صلاحهم!

• الرّجولة مسؤولية:

ليست الرجولة جنساً ولا شرفاً يفتخر به الذكور على الإناث، بل هي مسؤولية عظيمة وتكليف ثقيل، وإلى هذا المعنى أشار تعالى بقوله: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]، ذلك أن آدم وحواء كانا يأكلان ويشربان في الجنة بدون شقاء وتعب، فإذا خرجا منها - كما حصل - فإن آدم هو من سيتحمل العبئ الأكبر في طلب الرزق وتوفير الأمن، وفي تدبير شؤون المعيشة وجَلْب الراحة، ولا شكّ أن حَمْل همّ ذلك كله يُشقيه !

وتشهد أرقام الواقع بأن الرجال أقصر عمراً من النساء، وأكثر عرضةً للأمراض النفسية والجنون!

المسؤولية تضامنية:

لا يُحمِّل القرآن فاعلَ الجريمة المباشر وحده المسؤولية، بل يُشرك معه كل من خطَّط وساعد أو رضي وسكت.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ ﴾ [الأعراف: ٧٧]، والعاقر كما تقول كتب التاريخ إنما هو شخص واحد يُدعى قُدار بن سالف، لكن الآخرين اشتركوا في الجريمة بالرأي والتخطيط أو بالمعاونة والمساعدة، وفي الحد الأدنى بالسكوت والرضى؛ فساهم كل واحد منهم بنصيب نسبي في هذه الجريمة البشعة.

• مسؤوليةُ الزعماء:

إن مسؤولية الزعماء كبيرة جداً، حيث أن كل ما يأمرون به من منكرات أو يَسكتون عنه من جرائم، إنما هو محسوب عليهم كأنهم فعلوه بأيديهم، ألا ترى أن الله قال عن صنيع فرعون ببني إسرائيل: ﴿ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [القصص: ٤]، مع أنه لم يباشر الفعل بنفسه، لكن أمره بذلك الفعل جعله كالفاعل في الجُرم !

* * *

عِلَلُ التَّديُّن

• التحذير من علَل التدين:

الآية التي تنتصب كبرهان سافر على خيرية هذه الأمة وتقدمها على سائر الأمم، هي قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ونلاحظ في النصف الثاني من الآية تحذيراً قوياً مبطناً من العوارض التي تنال من خيرية الأمة، وهي إشارة إلى علل التدين التي نالت من خيرية اليهود وتفضيلهم على العالمين في زمنهم.

هذه العلل هي التي أشار إليها المصطفى محمد ﷺ في قوله: «**لتتبعن سَنَن من كان قبلكم شبراً فشبراً وذراعاً فذراعاً...**».

ذلك أن ضعف الإيمان إن لم يتم تقويته بالمراجعات والتوبة، سرعان ما سيتسبب في انزلاق كثيرين إلى مهاوي الفسق، حيث الخروج من أبواب «شُعَب الإيمان» إلى مزالق الكبائر، وهي «الكبائر» التي تتسبب في «تصغير» الأمة وسقوطها من ناصية «خير أمة» إلى مستنقعات الفسوق والانحطاط!

• عَصَا بني إسرائيل:

ذُكرت العصا في القرآن اثنتي عشرة مرة، ووردت كلها في سياق قصة موسى وقومه، مما يشير إلى أن بني إسرائيل لا ينقادون إلا للعصا، سواء كانت عصا المعجزة أو عصا التأديب والعقاب!

ومن المعلوم أن عدد أسباط بني إسرائيل اثنا عشر سبطاً، فهل يمكن القول إن لكل قبيلة من هذه القبائل عصا خاصة بها ؟!

ومهما يكن الأمر فإن اليهود أمة اجتمعت فيها علل التدين عند سائر الأمم الأخرى، ولذلك سلّط عليهم الله مختلف العِصيّ، بما فيها عصا المعجزات الخارقة التي تبعها التأديب والتعذيب، عندما قوبلت بالتشكيك والتكذيب!

• نماذج وأمثلة:

برغم احتواء القرآن على قصص كثيرة من السابقين، استغرقت نحواً من مساحة ثلث القرآن الكريم، إلا أن ما ذكره القرآن يظل مجرد أمثلة متنوعة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور: ٣٤]، فالمَثَل هنا بمعنى النموذج لكل نوع من أنواع الانحراف.

وقد صرّح القرآن بأن من ذكرهم الله من الأنبياء هم مجرد أمثلة: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ.. ﴾ [غافر: ٧٨]، حيث استوعبت هذه النماذج كافة الأبعاد في قصص الحياة، واستعرضت شتى علل التدين التي يمكن أن تصيب أمة الإسلام إلى قيام الساعة، وما على المسلمين إلا استنباط العبر والدروس لتصبح حياتهم أفضل وليكونوا أسعد الناس!

• النقد الذاتي وزيادة الفاعلية:

إن ممارسة المراجعات دوماً واجتراح النقد الذاتي، تُمكِّن الناس من اكتشاف أخطائهم فيقضون عليها في مهدها، وتُعينهم على معرفة نقاط قوتهم فيعظمونها ويطورونها، ومن ثم فإن من يقومون بهذا تزداد قوتهم عاماً بعد عام، وهذا هو عين ما دل عليه قوله تعالى على لسان نبي الله هود: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ٥٢]، وتأمّل معي قول هود: ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ وكيف يشير بوضوح إلى أن الاستغفار بدائرته العريضة والتوبة بمعناها الشامل يقومان بتعظيم نقاط القوة ومضاعفتها.

* * *

أرواحُ الأمم

• الأهلية الروحية:

يعترف الإسلام بأواصر الدم وقرابات الرحم، لكنه يجعلها ثانوية في مقابل أواصر الروح وأخوة الدين، ولهذا عندما ظهر الطوفان وركب إخوة الدين السفينة ولم يجد نبي الله نوح ابنه قال منادياً ربه: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ...﴾، فقال له الله: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٤٦]، ولا تعارض بين الأمرين لأن نوح يتحدث عن ابنه الذي تَحدَّر من صُلبه، والله يوجهه إلى أن النّبُوّة لا ينبغي أن تقيم للبُنُوَّة وزناً ما دام صاحبها كافراً، ويذكر بأن الكفر «عمل غير صالح»، ذلك أنه يمحق سائر الأواصر ويسحق كافة العلائق.

• المفهوم الروحي للأمم:

مثلما لم يُقِم القرآن وزناً لبنوة الدم في نموذج ابن نوح، فعلى يد نوح نفسه علّمنا القرآن أن الأمم لا تقام على أواصر العرق والجنس بل على روابط الدين والثقافة، فهناك أمة الهداية وأمة المعروف وأمة المنكر، ألا تبرز لنا هذه المعاني بجلاء من قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؟ [هود: ٤٨].

• رابطة الإيمان:

عندما يكون الإيمان حاضراً فإنه يُسهِّل الصعب، وعند انعدامه يصير ما هو سهل مستحيلاً.

وقد أورد القرآن دعوتين لرسولين من أولي العزم من الرسل، في الأولى دعا موسى ربه فقال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢]، وفي الأخرى دعا نوح ربه فقال: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي..﴾

فاستجاب الله لموسى وجعل أخاه شريكاً له في النبوة والرسالة، ولم يستجب لنوح بل قال له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ..﴾.

وهو درس يعلمنا أن الدعوات تسير وفق النواميس الإيمانية، وأنه لا قيمة للقرابات والأنساب إن خرجت من دائرة الإيمان، وأن الإيمان يُقوّي سائر الروابط والصلات إن كان موجوداً، وإن انعدم فإنه يؤدي إلى انفصالها وانفصامها.

• تَحوُّل العُصْبة إلى عِصابة:

عندما تتحلّل أي «عُصبة» من الالتزام الصارم بالقيم والأخلاق تصير مؤهلة للانزلاق السريع نحو ثقافة «العصابة»، وذلك مثل إخوة يوسف الذين قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ..﴾ [يوسف:٨]، فقد اقتربوا من أخلاق العصابة؛ عندما كذبوا على أبيهم، وخطّطوا للإيقاع بأخيهم ورموه في غيابة الجُب.

ومن المعلوم أن الذين جاؤوا بالإفك ضد عائشة كانوا عصبة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ..﴾ [النور: ١١]، ولولا تصدي القرآن لهم ولولا حيوية المجتمع الإسلامي لتحوّلوا مع المدى إلى عصابة !

* * *

رياءُ المنافقين

• جَوهرُ الخَلَل:

من صفات المنافقين أنهم يحرصون في الطاعات على إشهاد الناس (المُراءاة) لا الله، والعكس في المعاصي، حيث يَسْتَخْفون من الناس ولا يَسْتخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول، وهذا هو حجَر الزاوية في مرض المنافقين وجوهر الخلل في شخصياتهم، وبذلك فإنهم لا يؤمنون بالله، ولو آمنوا به تعالى لاسترضوه بالطاعات وخافوه في المعاصي، ولو فعلوا ذلك لَزَكَتْ قلوبهم وصلحت أعمالهم.

• الصلاة من الرؤية إلى الرياء:

إن الذين لا يستشعرون رؤية الله لأعمالهم العبادية لا يتقنون أركانها ولا يلتزمون بشروطها، ثم إنهم يندفعون لإرائة الناس هذه العبادات بدلاً من إذاقتهم لثمارها العملية الطيبة، وفي هذه الحالة فإن الشعائر لا تزرع التقوى في القلوب ولا تغرس الرحمة في الأفئدة، وتصبح شديدة العقم لا قيمة لها، بل قد يوظفها صاحبها في خداع الخَلْق بدلاً من خدمتهم، مما يضعه في خانة المكذبين بالدين.

ولهذا فقد عجَّب الله نبيه من هذا الصنف في سورة كاملة من صغار السور وسميت بالماعون، فقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ..﴾ [الماعون: ١ - ٥].

إن بداية الخلل هو السهو في الصلاة عن استحضار جلال الله، واستخدم حرف(عن) بدلاً من (في) ليفيد بأن قلوبهم غائبة بالكلية عنها وكأنهم لم يحضروها أصلاً.

ومن المؤكد بأن من لم يُرِ الله صلاته سيريها للناس، وبذلك يصبح من المُرائين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ..﴾ [الماعون: ٦]، وعندها فإنها لا تعطي ثمارها ولذلك قال: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧] ومن هنا فقد أوصى ﷺ كل مؤمن بقوله: «**إعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

• إسقاطُ المنافقين:

من الحيَل النفسية التي يمارسها المنافقون حيلة الإسقاط، حيث يُسقطون ما في أنفسهم من عُقد وأمراض على غيرهم، ولأن مواعيد الظالمين والمنافقين غرور وتغرير كما قال تعالى: ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠]، فإنهم قد مارسوا إسقاط هذه الآفة في حديثهم عن الله ورسوله: ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] !!

إن النفوس الدنسة ترى كل شيء دنساً، وما تزال هذه العلة تتضخم حتى تتحكم بمشاعر هؤلاء نحو ربهم، ونحو نبيهم الذي يُصَيِّرونه مثل كل البشر، ونحو كتابهم الذي يصبح كأي كتاب!

• أساسُ التقوى:

في سورة التوبة وَجَّه اللهُ رسولَه محمدا بأن لا يقوم في مسجد الضِّرار الذي بناه المنافقون للتفريق بين المؤمنين، وأمَرَه أن يقوم في المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم، ثم أعلن القاعدة العامة في هذا الإطار وهي قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وهي دعوة عامة لإقامة كافة المؤسسات في سائر مجالات الحياة على تقوى من الله، بحيث تساهم في تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم، ومن ذلك جلب الوحدة ودرء الفُرقة، مع الحرص على ابتغاء وجه الله بذلك كله.

معارجُ الدعاء

• الأسبابُ قبل الدعاء:

المسلم مأمور أن يأخذ بالأسباب، ولأن الأسباب لا تعمل بذاتها فإنه يدعو الله بأن يمنحها الفاعلية التي تحقق مراده وتلبي مطلبه.

وفي هذا السياق قال تعالى لطائفة من بني إسرائيل: ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٥٨]، فوجّههم إلى طَرْق أبواب الأسباب قبل طلب المدد من الله، حيث أمرهم أن يدخلوا أبواب القرية خاضعين لله ويدعونه بأن يَحط عنهم خطاياهم التي تقيد حركتهم وتثقل خَطْوهم.

• تحقيق الأسباب وما وراء الأسباب:

لما كان الله هو مالك الأسباب ومُسيِّرها، فإن المؤمن يدعو الله بعد أن يأخذ بالأسباب بأن يمنحها الله فاعليتها، ويدعو الله بأن يخرم الأسباب التي تقف أمام تحقيق مطالبه إن كانت فوق طاقته.

ويوجد هذان النوعان من الدعاء في دعاء إبراهيم وابنه إسماعيل؛ حيث قالا: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨ - ١٢٩]، فالدعوة بأن يجعلهما مسلمين تتضمن النوع الأول، لأنهما قد أخذا بكل الأسباب التي تجعلهما مسلمين، وتنتمي بقية الدعوات إلى النوع الثاني.

• الدعاء على الظَّلَمة:

عندما يدعو المؤمنون على الكافرين إنما يدعون عليهم بسبب ظلمهم وليس لكفرهم، فهذا نوح وهو أشهر من دعا على قومه بعد أن لبث فيهم قرابة الألف عام، نجده في دعائه لربه يُبرز مظلوميته، كما قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠]، فهو إذاً الظلم والاعتداء على حريات وحقوق الآخرين، وأيضاً الخوف على الصالحين من غواية الطالحين، كما قال في سورة نوح: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧]، حيث علّل هذه الدعوة بالهلاك بسعي هؤلاء الكافرين لإفساد القلة المؤمنة مع توريثهم الظلم والكفر لأولادهم، ولنلاحظ كيف قدم الفُجور المرتبط بظلم الإنسان على الكفر المرتبط بحقوق الله.

• دعوةٌ ودعاء:

إن الذين هم جديرون بدعاء الله في عالم الغيب، هم الذين يَدعون الناس إليه في عالم الشهادة، ولهذا فقد ربط الله الدعاء بالدعوة في توجيهاته لنبيه محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٨٧- ٨٨].

* * *

مَصَاعدُ الدُّعاء

• المشروعية والالتزام:

ينبغي أن يظل الدعاء ملتزماً بتعاليم هذا الدين، بمعنى أنه لا يجوز للداعي أن يطلب إزالة ثابت من الثوابت كتحليل الحرام أو تحريم الحلال، وكقطع الرحم أو موالاة أهل الشرك والنفاق وغفران ذنوبهم، فهذا خليل الله إبراهيم قد دعا لأبيه لكنه مات على الكفر، وهذا نوح عليه السلام خاطب ربّه بتوجُّع: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ..﴾ [هود: ٤٥]، راجياً نجاته من الغرق، لكن الله قال له: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ [هود: ٤٦] وأهلكه الله مع الهالكين، وكم بذل محمد ﷺ من محاولات لهداية عمه أبي طالب وكم دعا له بالهداية، لكنه مات على الكفر، بل وعاتبه الله تعالى بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، وقام بالاستغفار لعبد الله بن أُبيّ فقال له الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

فالدعاء إذن ليس عملية فوضوية، وليس كل من دعا استجاب الله له.

• توازنُ الدعاء:

إن الذين جعلوا الدنيا وسيلة لعمارة الآخرة ووراثة الجنة، يَتَّسِمون بالتوازن في كل أبعاد شخصياتهم وفي كل نواحي حياتهم، ويَبرز ذلك في كل ما يَصدر عنهم من أفعال، بما في ذلك الدعاء، والعكس بالعكس.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠٠ - ٢٠١]، وبالطبع فإن

كلمة حسنة هنا نكرة لتفيد عموم ما تَحْسُن به الحياة سواء في الدنيا أو في الآخرة، حيث التوازن الدقيق بين وسيلة الدنيا وغاية الآخرة.

• المغفرة أولاً:

ينبغي في الدعاء أن يبدأ المؤمن بالتخلية قبل التحلية، حيث يعترف بذنبه داعياً الله أن يغفر له ثم يطلب ما يشاء من حسنات الدنيا والآخرة.

فهذا آدم عليه السلام وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة قالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فقَدّما المغفرة على الرحمة، إذ أن الذنوب تمنع تنزل غيث الرحمة.

وهذا سليمان عليه السلام يقول: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، فقد طلب المغفرة قبل المُلك، إذ ما قيمة مُلك الدنيا إذا كان المرء من أهل غضب الله وسخطه؟!

* * *

دُروسٌ دُعائية

• دوائرُ الدعاء:

يُعلّمنا نبي الله نوح أن الدعاء ينبغي أن يسير في دوائر متدرجة من الأضيق إلى الأوسع، فقد قال في دعائه: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ..﴾، حيث دعا بالمغفرة لنفسه أولاً ثم لوالديه، ثم لمن دخل بيته من المؤمنين، ووصل إلى أوسع دائرة وهي التي تضم جميع المؤمنين والمؤمنات؛ ذلك أن الدعاء سعيٌ قلبيٌ لإصلاحٍ من تدعو لهم، والدعوة تسير بهذا التدرج كما هو معلوم، وإن كان تدرُّج الدعوة فِعليٌّ بينما تدرُّج الدعاء قَوليٌّ.

• إصلاحُ الذّات أولاً:

في الآية السابقة نفسها يُعلمنا نبي الله نوح درساً آخر وهو الاهتمام بالداخل أولاً قبل الالتفات للعدو، وينطبق ذلك حتى على الدعاء، فقد قال: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ [نوح: ٢٨]، إذ ما فائدة أن يَهلك العدو إن لم تكن الذات صالحة في نفسها ؟!

• استمرارُ الدعاء:

ينبغي للمؤمن أن يستمر في الدعاء ولو لم تأت الإجابة، فمن توقّف عن الدعاء فكأنه أغلق باب الاستجابة، فقد تأتي الإجابة متأخرة لحكمة يَعلمها الله، فهذا خليل الله إبراهيم بلغ من العمر مبلغه ولم يكن له ولد، ولابد أنه كان يدعو الله بأن يرزقه الذرية الصالحة فهذا من الفطرة، ثم إننا نستنتج ذلك من قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، فقد أعطاه الله إسماعيل وإسحاق بعد أن بلغ سن الشيخوخة، وبعد أن واصل الدعاء المشار إليه في نهاية الآية.

مَراقي الصلاة

• بُرهان الصلاة:

ليست الظروف هي من تدفع الإنسان إلى اقتراف الفاحشة، فهذه امرأة عزيز مصر كانت متزوجة، وكان يوسف عازباً وفي مقتبل شبابه وكامل قوته، فحاولت المرأة المُستكفية إغواء الشاب الذي لا زوجة له يحتمي بها من عنفوان الشهوة، بل وظلت تطارده وتراوده، وظل يقاومها ويتهرب منها، ذلك أنه قد استعصم كما قالت هي عنه، لكنها لا تدري بماذا، وهو إنما استعصم بايمانه وإخلاصه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، لقد رأى برهان ربه في وقت فوران الشهوة ومحاصرة الإغواء له؛ كما قال تعالى: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، وبرهان ربه هنا ليس معجزة خارقة كما ورد في بعض الإسرائيليات وإنما هو الصلاة التي كان يقيمها بحضور العقل وخشوع القلب، ولا يؤديها مجرد أداء، فاستقامت حينذاك لتقمع الشهوة الموجودة في جبلّته عن الانبعاث في هذا الموضع: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولو كانت امرأة العزيز تقيم الصلاة لاستقامت الصلاة حائلةً بينها وبين شهوتها المُتأجِّجة!

• إمارةُ الصلاة:

لقد ظل المؤمنون في كل زمان ومكان يقيمون الصلاة بأركانها المادية والروحية، وبشروطها العقلية والقلبية، حيث يَعون ما يفعلون ويدركون مع من يتخاطبون، ولذلك كانت ثمارها اليانعة تتفتَّح من أكْمام الوعي وتَتدلّى من أغصان الخشوع، لتصبح إمارةً ذات أمْرٍ ونَهْي، حيث يقيم المؤمن عرشها في قلبه، وتَصدُر تصوراتُه وتصرفاتُه عن وعي كامل بها، حتى أن الناس ليرون ثمارها في أخلاقه النبيلة وسلوكياته الراقية.

ولقد لاحظ قوم نبي الله شعيب هذا الأمر فقالوا له: ﴿ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ﴾ [هود: ٨٧]، حيث تتدلّى ثمارها وتتمدد أوامرها إلى ميدان الأموال وسائر ميادين الحياة، ولهذا صارت عمود الدين.

• الصلاة الآفاقية:

لأهمية الصلاة في استفاقة الفطرة الطيبة للإنسان واستقامة السلوك الحسن، ولوظيفتها في النهي عن الفحشاء والمنكر وتذكر جلال الله وكماله، فقد جعلها الله قاسماً مشتركاً بين سائر الرسالات والشرائع، وإن اختلفت أعدادها وطقوسها وهيئاتها وأوقاتها، فقد وردت بذلك آيات كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤ - ١٩]، فقد أشارت هذه الآيات إلى أن الصلاة كانت موجودة في صحف إبراهيم وموسى، أي في كل الشرائع السماوية، وإنما ذكر إبراهيم وموسى هنا لأنهما أعظم الأنبياء والمرسلين بعد حبيب الله محمد، فالأول هو خليل الله والثاني كليمه، وتشتد الحاجة إلى الصلاة كلما تدنّى الإنسان أكثر، لأنها أهم رافعة ترتقي بمدارك الإنسان وتسمو بجوانحه في مدارج السموق السماوي.

ثم إن الصلاة مع التسبيح قاسَمٌ مشترك بين الكائنات كلها، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١]، ولاحظ تعبير: «كلٌ قد علم صلاته وتسبيحه» الذي يفيد شمول التسبيح لعموم الكائنات.

إذاً الصلاة في حقيقتها من أهم الفرائض الممتدة في آفاق الزمان والمكان؛ وذلك لأهميتها البالغة في المحافظة على قَوَام العالم.

تِريَاقُ التَّوبة

• ضرورةُ التوبة:

التوبة ماحيةٌ للسيئات وماحقةٌ للذنوب، سواء كانت كبيرة أو صغيرة، وكل ابن آدم خَطّاء ولا طريق للخروج من مستنقع الأخطاء والخطايا غير طريق التوبة، ومهما كان إيمان المرء وصلاحه فلابد أن يخطئ ذات ضعف أو نسيان، ومن ثم لابد له أن يتوب ويؤوب، فلقد قال الله عن أفضل خلقه على الإطلاق: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ..﴾ [التوبة: ١١٧]، وقال عن موسى: ﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وذكر الله في قرآنه أن التوبة لا تكون للمشركين والمنافقين وإنما للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٣].

فكأن التوبة فيصل أساسي بين المؤمنين وغيرهم، وبدون التوبة لا يكون هناك إيمان، ذلك أن التوبة تِرياقٌ يُبقي على الإيمان من لَدَغات الخطايا ولسَعات الآثام!

• جُسورُ الغفران:

إن غفران الله أمرٌ لابد منه لجميع الناس نتيجة تركيبتهم الطينية وشوائبهم الترابية، بما في ذلك الأنبياء والمرسلون الذين عصمهم الله في أمور التبليغ، لكنهم في الأمور الحياتية تجري عليهم سُنن الله وتؤثر عليهم طبائع البشر، ولذلك لا تجد نبياً إلا ووقف بباب الله ذليلاً منكسراً يطلب المغفرة من ربه ويستنزل رحمته.

وعلى سبيل المثال، هذا آدم وزوجه قد اعترفا بذنبيهما بعد الأكل من الشجرة المُحرَّمة فقالا: ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وبعد أن طلب نوح من ربه أن ينقذ ابنه من الغرق رغم كفره، عاتبه الله فتاب إليه

وقال: ﴿ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧]، ودعا الخليل وابنه إسماعيل ربّهما فقالا: ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال موسى: ﴿ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وهكذا فإن الآيات السابقات توضح أن المغفرة هي الجسر الذي يمنع الإنسان من السقوط في مهاوي الخسران!

• صابونةُ الاستغفار:

مهما كانت رقابة الإنسان صارمة على نفسه فلابد أن يخطئ يوماً دون أن يعلم، ولذلك لابد من التطهر مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم، وذلك عن طريق المُداومة على الاستغفار، فهو الصابونة التي تزيل الذنوب وتمحو الأخطاء، ولهذا قال تعالى لأطهر الخلق محمد ﷺ: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ .. ﴾ [محمد: ١٩]، فهيّا إلى التوبة الصادقة، وقوموا إلى استغفاركم يرحمكم الله.

* * *

مَشاعلُ الصلاة

• الصلاة بُرهانٌ الإيمان:

ورد في قصة يوسف مع امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، ولخطورة هذا الأمر فإننا نحتاج لتأمل هذه الآية مرات ومرات، ويبدو لنا أن برهان ربه هنا هو تَذكُّر الله في ذات الوقت الذي انبعثت فيه الشهوة فصنعت هَمّاً، وحضور الله بجلاله وجماله وكماله مع المؤمن لا شك أنه يطفئ نار الشهوة، ويُضخِّم المعصية، فينسحب المؤمن وبذلك يُعصم من الفحشاء.

إن من يحضر بعقله وقلبه مع الله في محراب الصلاة؛ لابد أن يحضر الله معه في محراب الحياة، ولذلك قال تعالى عن الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ولكنها ليست أي صلاة وإنما الصلاة التي تصنع الوعي وترتفع بمنسوب الإيمان، ولذلك قال ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...**»، فكيف إذا تعلّق الأمر بيوسف وهو من المُخلَصين؟ بالتأكيد أن صلاته مُخْلَصةٌ لله بالكامل؛ ولذلك آتت ثمارها عندما عصمه الله من الفحشاء، رغم أن كافة الظروف كانت مواتية لوقوع هذه الجريمة:

- الشباب والصحة والوسامة عند يوسف.
- الجمال والمنصب والشباب عند المرأة.
- الفراغ والمكان المناسب (مُحكَم الغلق).
- الغطاء موجود (العبد في خدمة سيدته).
- طلبت المرأة المُواقعة بوضوح سافر، حيث راودته عن نفسه بل وهددته إن لم يفعل.

إذاً الصلاة هي عصمة من الكبائر لمن أدّاها بشروطها وأركانها، وقوة هذا البرهان أو العصمة نسبيان وذلك على قدر إقامتها، ولهذا فقد جعلها الإسلام عمود الدين.

• فاعليةُ الصلاة:

إذا أقيمت الصلاة وفق المنهج النبوي بأركانها وشروطها المادية والروحية، فإنها تمتلك فاعلية كبيرة في بناء الشخصية، وفي إعطائها بوصلة التأثير على الأفكار والأشخاص والأشياء.

وهذا ما اتَّسَمت به صلاة الأنبياء والصُّلَحاء في كل زمان ومكان، ولقد لاحظ قوم شعيب تأثير صلاته عليه في شؤون حياته كلها، فقالوا له: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ...﴾ [هود:٨٧]، حيث تَعدَّت الطاقةُ الإصلاحية لصلاة شعيب ذاتَه إلى قومه.

• التفرُّد والتوحُّد:

في الصلاة تنمية للمواهب الذاتية وللمشاعر الجَمْعية في آنٍ واحد، ويبدو أن الله رمَز للأمرين بالسجود والركوع، وذلك في أمره تعالى لمريم بقوله: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، فإن السجود غياب عن الموجودات وسياحة مع مالك الوجود وحده، حيث الاقتراب الشديد من الله سبحانه: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩]، ولا شكّ أن الاقتراب من صاحب الكمال الباهر والقدرة المطلقة، يُفجِّر المواهب الثاوية في الذات ويُبرِز الطاقات الكامنة.

أما الركوع فإنه خضوع جماعي بشكل يُنمّي المشاعر العامّة ويوقظ الحِسَّ الجَمْعي ولذلك قال لمريم: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، ولأن الحس الجمعي تالٍ للنمو الذاتي فقد أخّر الركوع عن السجود في الآية مع أنه أقدم في ترتيب الصلاة!

* * *

مَطالِبُ العُروج

• قوة الاعتصام:

من أجل أن يحيا نبي الله يَحْيَى حياةً طيبة، قال الله له: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾ [مريم: ١٢]، وهي وصية الله لمن أراد أن يحيا الحياة العزيزة الكريمة، حياة الحرية التي لا سقف لها إلا توجيهات السماء، وحياة الترفُّه بدون تَرَفٍ والتمتع بالطيبات من غير سَرَفٍ، بعيداً عن مختلف الآصار وشتى الأغلال، وبعيداً عن السقوط في مستنقع الشهوات أو التوجُّع في قِفار الحِرمان!

• البراءة من الأفعال:

لقد تبرّأ الخليل إبراهيم من كفر أبيه منذ البداية مثل كل المرسلين، لكنه ظل يعذر أباه كشخص ويأمل فيه خيراً، وعندما تأكدت عداوته لله تبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴾ [التوبة: ١١٤].

إن حلم إبراهيم عليه السلام على أبيه لم يُلْغ صفته الأخرى وهي أنه في علاقته مع الله أوّاه، ولذلك تقدم الأوّاه على الحليم!

غير أن امتزاج والد إبراهيم بالكفر جعله يتبرأ منه كأن الكفر صار جسداً يسير على قدمين، رغم أن البراءة في الأصل هي من الأعمال لا من الأشخاص، كما فعل إبراهيم نفسه قبل ذلك عندما تبرّأمن الشرك لا من المشركين.

• عواطف الائتلاف:

دعا الخليل إبراهيم ربه فقال: ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ..﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وهو يقصد زوجته هاجر وابنه إسماعيل عندما أسكنهم في واد غير ذي زرع بمكة المكرمة.

وهنا نلاحظ كيف اختزل الناس في الأفئدة: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ ...﴾ ولم يقل: فاجعل أناساً؛ ذلك أن الأفئدة أساس التآلف وجسر التواصل، وهي ضرورية لقيام أي مجتمع مسلم، فكيف إذا كان هذا المجتمع هو مضغة الأمة وقِبلة صلاتها وحَجِّها ومَهْوى أفئدتها ؟

ولقد ساق الله إلى مكة بعد هذه الدعوة قبيلةَ جُرْهُم اليمنية، وهي شهادة على امتلاك اليمنيين لقلوب رحيمة وعواطف طيبة أكثر من غيرهم.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الخصيصة عند اليمنيين في أكثر من حديث، أهمها قوله ﷺ: «**جاءكم أهلُ اليمن هُمْ أرَقّ قلوباً وألْيَن أفئدة**».

• حَقُّ الإنسان قبل حق اللّه:

عندما غلّقت امرأة العزيز الأبواب وراودت يوسف عليه السلام عن نفسه وقالت: هَيت لك، قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ويقصد بربه هنا العزيز إذ أنه رب ذلك البيت الذي أكرمه وائتمنه على أهله، فذكر حق صاحب البيت قبل حق الله!

• مواصلة البناء:

واصِلوا صناعة سفن النجاة وإعداد معارج النهوض، ولا يستفزنكم الذين يَسْخَرون منكم ويضحكون عليكم، فقد كان الملأ من قوم نوح يَمُرّون عليه وهو يصنع الفلك فيسخرون منه فيقول لهم: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، وكأن الغرق مصير الساخرين، وليس بالضرورة الغرق في الماء، ومن المؤكد أن العاقبة للمتقين!

* * *

دُروسٌ سَماوية

• السُّجود المعنوي:

لم يأمر الله الملائكة بالسجود لآدم عندما خلقه من الصلصال على صورته البشرية المعروفة، وإنما بعد أن نفخ فيه من روحه وهي مرحلة التصوير التي عبَّر عنها رب العزّة بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ..﴾ [الأعراف: ١١]، فقد تم خلق آدم من التراب ثم صوره بأن نفخ فيه من روحه، بمعنى أن السجود تكريمٌ للنفخة العلوية التي صار آدم بها إنساناً، وهو سجود للقدرة الإلهية الخارقة التي تقول للشيئ كن فيكون، وهو سجود للعلم الذي زيَّن الله به آدم وهيّأه من خلاله للقيام بخلافته في عمارة الأرض!

وبالجملة فإنه سجود للمعاني التي يحملها الآدمي وبموجبها يصير إنساناً كريماً على الله.

وقبل ذلك هو امتثال للأمر الإلهي التعبدي الذي وضع سرَّه في أضعف خلقه، وهو العلم الذي جعل إنساناً مثل عمر بن الخطاب عندما وقف أمام الحجر الأسود يقول: «**اللهمَّ إني أعلم أنك حجَرٌ لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يُقبِّلك ما قَبَّلتُك**»!

• حرية الغواية:

في الوقت الذي توعّد فيه إبليس بإغواء بني آدم أجمعين باستثناء المخلَصين، أثبت الله إرادة الإنسان وحريته وقدرته على الاختيار، وأورد ذلك بما يُشبه القسم لتأكيد أن هذا القانون لا يتبدل ولا يتغير، فقال عزّ من قائل: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحِجْر: ٤١- ٤٢]، ولنتأمل دقة التعبير القرآني الذي يقول: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾، فقد

سمّاهم الغاوين باسم الفاعل، أي أنهم من يتبعون طريق الغواية بكامل اختيارهم ومَحض إرادتهم، ومن ثم فإن الشيطان أضعف من أن يُغويهم ولا يملك لهم سوى الوسوسة والتزيين.

• حصنُ الذكر:

قال الله تعالى عن إبليس: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ويبدو لي أن من معاني الرؤية الحسية هي أن الشيطان يعرف نقاط ضعف الآدمي فيأتيه منها، بينما الآدمي لا يعرف نقاط ضعف الأباليس، لكنه يستطيع إغلاق أبوابه وقابلياته بذكر الله تعالى، الذكر الذي يستجمع حضور العقل والقلب، فيَنهمر عليه جمالُ الله وجلالُه، ليحميه من حَرور الوسوسات الشيطانية والنزغات الإبليسية.

• الجزاءُ المُماثِل:

إن ميزان الله شديد الحساسية وعدل الله تعالى مطلق الوفاء، ولهذا كان الجزاء دوماً من جنس العمل، فعندما رفض إبليس السجود لآدم، مستكبراً بأصله الناري على الأصل الطيني لآدم؛ عاقبه الله بالإهباط من سماء الرضى الإلهي ومن علياء الجنة الفردوسية، كما هو معروف في عدد من آيات القرآن، ولا يزال الله يعاقب المتكبرين بالإهباط دوماً، عَبْرَ ملئهم بمشاعر النقص في ذواتهم واحتقار الخَلق لهم، ولا شك أن الناس سيطؤونهم يوم القيامة بأقدامهم كما ورد في الحديث الصحيح.

* * *

دَرَجاتُ الرِّفْعة

• درجاتُ العلم:

يستطيع الإنسان أن يستمر في الترقي والارتفاع طيلة حياته، ما دام يصعد عبر درجات العلم والإخلاص.

فقد قال تعالى في عموم المؤمنين: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وفي سياق الحديث عن قصة يوسف عليه السلام أوضح القرآن كيف كاد الله ليوسف حتى يستعيد أخاه، وختم الآية بقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وهي إشارة إلى أنه لا منتهى لهذا العلم، ولا يوجد من وصل إلى الذروة في كافة أنحائه وميادينه، ليبقى جميع الناس بحاجة بعضهم، وليكملوا بعضهم، فالمرء يظل عالماً ومتعلماً في كل وقت.

• درجاتُ العلم والإقناع:

وعن الخليل إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فقد كان إبراهيم حُجّة في العلم والحلم، وكان قمة في المحاورة والمحاججة، ولم يُضاهِه أيُّ نبي في امتلاك مهارات المناظرة والإقناع، كما في مُحاججته للنمرود بن كنعان ولأبيه وقومه.

ومن هنا يَتبيّن فضل الفصاحة والبيان، وفضل الذكاء والفطنة، ضمن إمكانات الشخصية التي تصنع لها مكاناً علياً.

• درجاتُ الصَّبْر:

وعن عامة الرسل عليهم السلام قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ..﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ومن المعلوم أن أفضل الرسل

خمسة وهم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد، والسبب الأساسي لتفضيل هؤلاء هو أنهم اعتلوا درجات الصبر أكثر من غيرهم من الرسل، ولذلك فقد اعتلوا هرم النبوة، وسُمِّي هؤلاء بـ«أولو العزم»، وقد وجَّه القرآن محمدا ﷺ فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، حيث ينهاه القرآن عن الاستعجال ولو بدا أنه لصالح المدعوين: ﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾، فإن قطف الثمرة قبل أوانها فساد وضرر، ومن القواعد الفقهية: (من استعجل الشيئ قبل أوانه عوقب بحرمانه)!

• درجاتُ العمل:

وإذا كان العلم شجرة ثمرتها الأعمال الصالحة، فإن المسابقة إلى عمل الخيرات والمسارعة إلى اجتراح الصالحات ترتقيان بأصحابها مرتقى صعباً، حيث ترفعانهم درجاتٍ في سماء الرفعة والأجور، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فالدرجات هي نتيجة الأعمال، والأعمال إنما هي ثمرة العلوم.

* * *

تَحليقُ الأَوّابين

• العمل بين التعبُّد والاعتداء:

حرّم الله العمل يوم السبت على اليهود وجعله اعتداء، فقال تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ ..﴾ [النساء: ١٥٤]، وجعله عبادة بالنسبة للمسلمين فقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ..﴾، حيث افترض القرآن أن المؤمنين في الساعة التي ينادي فيها المؤذّن للجمعة يكونون في حالة عمل: ﴿ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ﴾ [الجمعة: ٩ - ١٠]، والبيع مجرد مثال لسائر المهن، وبعد أن تُقضى الصلاة يأمرهم أن يعودوا إلى عبادة العمل وابتغاء الرزق من جديد كما توضح الآية بجلاء.

فانظروا كيف تبادل المسلمون واليهود المواقع في هذا العصر، حتى صارت كل أيامهم جمعة وكادت سائر أيامنا أن تصير سَبتاً!

• الحياة بالإيمان:

لأن الإيمان مشروع (حياة)، وليس علاقة خاصة تربط الإنسان بربه فقط، فإن الإيمان لا ينفع عند الغرغرة ولا عند طلوع الشمس من مغربها، كما ورد في الحديث الشريف، وقد ورد في القرآن الكريم أن إيمان فرعون لم ينفعه عندما أدركه الغرق، فقد صاح: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠]، وذلك حينما رقصت الأمواج به رقصة الموت، كما كان يرقص على حبال الطغيان، مغتراً بأن لُجّات النيل تتراقص من تحته !

ولهذا قال الله مستنكراً رافضاً: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ..﴾ ؟!

• خُلُق الحِلم:

الحلم هو أن تبحث للآخرين عن أعذار وتصبر على أذاهم بترفّع، وتستمر على ذلك حتى تتبين لك عداوتهم لله، وهنا ينتهي الود ويبقى المعروف كما فعل إبراهيم الخليل مع والده: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٤]، ونلاحظ هنا جمع الخليل بين حق الله وحقوق الناس، من خلال الصفتين اللتين مدحه الله بهما في فاصلة الآية.

• تَحْليقُ التّأويب:

أوجد الإسلام أجنحة كثيرة يمكن للمرء أن يُحَلِّق بها في سماء الرفعة والعلو، ومن أهمها الذكر والتسبيح.

ولأن داود عليه السلام كان من أكثر الأنبياء تسبيحاً لله فقد رفعه الله مكاناً علياً جمع له فيه بين النبوة والمُلك.

ولأن التسبيح رفعة وعلو فقد سخَّر الله الطيور والجبال للتسبيح معه أو لترجيع تسبيحه، قال تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ [سبأ:١٠]، ويجب أن نلاحظ هنا حكمة اختيار الطيور من بين سائر الدواب، واختيار الجبال من بين ظواهر الأرض، فالطيور هي أقدر الكائنات على التحليق والعلو، والجبال أرفع الظواهر الأرضية وأعلاها مقاماً، وإلا فكل شيء يسبح بحمده ﷻ.

• كلمات النقد والتوبة:

عندما ارتكب آدم المعصية، قال الله عنه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٣٧].

ويبدو أنها كلمات الاعتراف بالخطأ وتحمل المسؤولية ونقد الذات والتوبة إلى الله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

[الأعراف: ٢٣]، فقد رأى الله في قلبيهما شعورا صادقاً بالندم على ما فرّطا في جنب الله فألهمهما هذا الدعاء.

• إدراك الخطأ نعمة:

﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا .. ﴾ [طه:١٢١].

كأن سوءات آدم وحواء لم تَبدُ إلا لهما كما يشير ظاهر النص، وهي هنا نعمة جزيلة، لأنها تجعل المرء يراجع نفسه دون أن ينفضح أمام الناس!

* * *

نَفائِسُ مُوسى

• حُسنُ الظّن:

عندما ذهب موسى مع الخضر في رحلة طلب العلم وتَعلُّم الرشد، اتضحت صفة حسن الظن في كليم الله موسى بجلاء، قال تعالى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ ...﴾ [الكهف: ٧٤]، فقد وصف نفس الغلام المقتول بالزكية أي الطاهرة، وهو بالطبع لا يعرف هذا الشخص ولا يدري إن كان صالحاً أو فاسداً، لكنه هنا تعامل بحسن الظن، ومنه نتعلّم أن الأصل في الناس هو الطيبة والطهارة وأن العكس هو الاستثناء.

• الجهر بالحق:

في الآية السابقة: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]، تتضح سجية الجهر بالمعروف والصدع بالحق في سلوك موسى العملي، حيث كانت من القوة بمكان لدرجة أنها دفعته للإنكار على من جاء يتعلم بين يديه، ومن قد علم يقيناً أنه يمتلك ما يُسمّى بالعلم اللدني، أي العلم الذي يتجاوز عالم الشهادة إلى عالم الغيب، فقد أوحى الله إلى الخضر بما سيكون عليه هذا الغلام لو كبر، وتحت قوة الرغبة في تغيير المنكر نسي موسى أنه تعهّد للخضر بالصّبْر وبأنه لن يسأل عن شيء مهما حصل، حيث سار على طبيعته في الصدع بالحق وإنكار ما يراه شاذاً، إذ اعترض بقوة على قتل الغلام بل واتهم الخضر بقوله: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾، وهذا هو الأصل في التعامل مع جميع الخلق ولو كانوا معلمين وشيوخاً، وليس من الإسلام في شيء أن تكون بين يَدي شيخِك كالميت بيد المُغَسِّل كما تزعم الصوفية وأضرابهم من مُقدّسي البشر!

• مشروعية التعاقد:

إن الاتفاق على تفاصيل العقود بين الطرفين أمر مشروع، حتى يعرف كل طرف ماذا يجب عليه ويعرف ما هو له، فإن نبي الله شعيب - على أرجح الروايات - عندما عقد لابنته على موسى عليه السلام طلب أن يكون مهرها تأجير نفسه لهم لمدة ثمان سنوات لازمة، بزيادة سنتين إن رغب في ذلك موسى، فقال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨].

• قيمة الزواج:

لما كان الزواج نصف الدين، فقد ظل موسى يدفع مهر زواجه عشر سنوات من العمل الدائب، رغم أنه سيصبح كليم الله، وكان ينتظره شعب بأكمله يرزح تحت قبضة الطاغية فرعون، ومن ثم فإن ذلك لم يتم صدفةً وإنما أراد الله أن يبين لنا الله القيمة النفيسة للزواج، بجانب أنه أراد أن تكتمل تربية موسى على عينه حتى تنضج شخصيته ويصبح مؤهلاً لمواجهة أطغى طغاة الأرض.

• صعقةُ الصَّدمة:

من طلب فوق قدرته وتحمّل ما هو فوق طاقته فقد تصيبه صعقة الصدمة، فهذا كليم الله موسى قد طلب رؤية الله جهرة، وعندما تجلى الله على الجبل خرَّ موسى صعقاً، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولابد لكل من تحمل فوق طاقته أن تصيبه صعقة المفاجأة التي لم يحسب حسابها وأن تصيبه صدمة الفشل.

* * *

التّحَصُّن من الشيطان

• الغواية الذاتية:

عندما تَعهَّد إبليس بأن يُغوي بني آدم أجمعين ردّ الله عليه بعهدٍ وثيق أن يظل صراطه مستقيماً لا عوجَ فيه، ثم قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحِجْر: ٤٢]، وكلمة الغاوين تشير إلى الاختيار الذاتي للضلال أو توفر القابلية للغواية على الأقل، بمعنى أن الشيطان ضعيف ولا يستطيع غواية أحَد ما لم يُرد هو ذلك أو يقبل به.

وتؤكد جملة ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾ على توافر الاختيار الذاتي في المسير خلف الشيطان.

• وُلُوج حِصْن الإسلام:

إن الدخول إلى الإسلام من أبواب الشُّعَب الإيمانية كافة كفيل بطرد الشيطان، أما ترك بعض المساحات فارغة من الحضور العبادي فإنه يُغري الشيطان بالدخول وملئ الفراغ الشاغر، ومن ثم تبدأ وسوساته بالإغواء والإغراء، وقد ينساق الإنسان وراء خطواته بالتدريج دون أن ينتبه !

ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وهذا هو سر الربط بين الدخول في شؤون الإسلام كافة وبين التحصّن من اتباع خطوات الشيطان، كأن الإنسان لا يحتمي من الشيطان ما لم يدلف إلى حصن الإسلام، عاضاً على كافة ثوابته بالنواجذ!

• غُرور الغَرور:

إن أحد أسلحة الشيطان الفتاكة هي الإغراء والتغرير بالإنسان، والنفخ فيه حتى يصاب بالغُرور، ولذلك سماه الله بالغَرور - بفتح الغين -كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]، حيث يدفع الإنسان إلى الفخر بنفسه والإعجاب بعمله، وإلى استصغار الآخرين واحتقار ما يُقدِّمون من أعمال .

• معاونةُ الأقوياء:

مهما كان الإنسان قوياً فإنه بحاجة إلى إعانة غيره، فهذا أحد أقوى ملوك الأرض وهو ذو القرنين الذي آتاه الله من كل شيء سبباً فأَتْبَع سبباً، عندما تَقدَّم لمساعدة الذين لا يكادون يَفقهون قولاً في وجه يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض، قال لهم: ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ..﴾ [الكهف: ٩٥]، فإذا كان الأقوياء بحاجة إلى الإعانة بقوة، فكيف بالضعفاء ؟!

يوضح هذا الدرس أن الانفراد يجعل الإنسان مطية سهلة للشيطان، إذ يغريه انعزاله بالفَتْك به؛ ولذلك فإن الشيطان حتى في الصلاة أبعد من الناس على قدر عددهم، ومن مقاصد صلاة الجماعة التحصن من الشيطان، «وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية» كما قال الحبيب محمد ﷺ!

* * *

مَجَامِعُ الذّات

• الهداية الذاتية:

لما كانت الهداية ذاتية فيُشترط أن تنبعث من الباطن وتنطلق من القلب، فإن نوح الذي تَعمَّر طويلاً ودعا لقومه كثيراً لم ينتفع قومه بدعائه، حيث قال تعالى على لسانه: ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [نوح: ٦]؛ إذ أنهم زهدوا بقناديل الهداية وأقبَلوا على ظلمات الغواية.

• نصال العدو:

لقد أوضح القرآن الكريم أن الأمة لا يمكن أن تُؤتَى من خارجها بل من داخلها، وأن المصائب حصاد لكسب الأيدي: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وفي هذا العصر بالذات كثُر السّمَّاعون للأعداء، واستحالت بعض الثغور الكبيرة إلى ثغرات خطيرة، وانطبق على كثير من المسلمين قول الشاعر:

تخذتكُـم درعاً حصينـاً لتدفعوا نبـال العِدا عني فكنتـم نصالَها!

وهاهم الأعداء يتجسسون علينا بأعيننا، ويمارسون التخذيل والتثبيط بألسنتنا، ويستخدمون عقولنا للمَكْر بنا، ويقتلونا بأيدينا!

• الانْغِلابُ الداخلي:

افتتح الله سورة الروم بقوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ..﴾ [الروم: ١، ٢]، حيث بُنيت الغلبة للمجهول مع أن الذي غلبهم معروف وهو الفرس، إشارةً إلى دور الأسباب الداخلية في الهزيمة، وأكد هذا المعنى بالقول: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم: ٣]، أي عندما يستأصلون شأفة عوامل الهزيمة التي أعطبتهم

سينتصرون، وفي ذلك تأكيد على أن العوامل الداخلية هي الفاعل الأساسي في الانكسار أو الانتصار.

• حياة الهداية:

الهداية دفق حياة، ولكي يقبلها الإنسان ويستفيد منها لابد أن يكون حياً، أما الأموات فأنّى لهم أن يسمعوا أصوات الهداية أو يروا راياتها أو يفكروا في ما تدعوهم إليه ؟

ولأن الأمر كذلك فقد وردت آيات عدة تُنبّه محمدا ﷺ بأنه لا ينبغي لرحمته بالناس أن تدفعه للإصرار على دعاء الأموات، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ ﴾ [الزخرف: ٤٠] و ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل: ٨٠] و ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢] !

• استثمار فرص التَّعلُّم:

وصف الله عبداً من عبيده فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ [يوسف: ٦٨]، أي أنه استوعب ما هيّأ الله له من أسباب العلم ووسائل المعرفة، ذلك أن كثيراً من الناس يَهبهم الله عقولاً جبارة وذكاءً وقّاداً، ويمنحهم فُرص التعلم ويهيئ لهم أسباب المعرفة، ويضعهم في ظروف لو أحسنوا استثمارها لتعلموا الكثير، ويُعطيهم من التجارب ما يُمكنها أن تُغنيهم بالخبرات وتتكفّل لهم باعتلاء ناصية الحكمة، لكنهم لا يَمتصّون رحيقها فيظلون كما هم!

* * *

وَقائعُ الحياة

• تفوُّقُ الرّعاع على الراعي:

في بعض المواقف وضمن قصص قطعان الباطل، قد نجد الراعي الذي يَسوق أتباعه نحو حظيرة الباطل أقل ابتذالاً من حثالة قومه الذين يصيرون ملكيين أكثر من الملك!

وعلى سبيل المثال فإن السامري الذي أضل قومه بعبادة العجل، عندما عاد موسى وقرّعهم على ذلك الانحراف الشركي؛ اعترف – أي السامري – بتسويل نفسه له هذه الخطيئة، كما في الآية ٩٦ من سورة طه، أما أتباعه من الرّعاع فقد تذرّعوا وتَحجَّجوا، قال تعالى: ﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا...﴾ [طه: ٨٧]، أي ليس بإرادتنا كأنهم كانوا مكرهين على ذلك الصنيع الشنيع، ولا غرابة في ذلك فإنهم أكثر جهلاً، ولذلك قالوا عن العجل بأنه إله: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

• تَصاعُدُ المُشاقّة:

في كثير من الأحيان تكون مشاقة الأشقياء للمتدينين دافعاً لهم للبعد عن الدين نفسه، ولمجافاة القيم ثم مشاقة الله في النهاية.

ولهذا سمعنا نبي الله شعيب وهو يصيح مُشفقاً على قومه، حيث يقول لهم كما جاء في القرآن: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖ...﴾ [هود: ٨٩]، أي لا تدفعكم الرغبة في مخالفتي إلى السير في طريق الهلاك الذي سار فيه مَن قبلكم من الأمم.

• انجذابٌ السوء:

لأن أهل السوء ينجذبون إلى بعضهم بحاسة خفية أو بإشارات يرسلها بعضهم لبعض في جنح الظلام، فعندما انجلت الفتنة التي أفسدت حياة يوسف، رفض الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته ويزول أدنى غبار يمكن أن يشوه صورته الناصعة البياض.

وفي جلسة المصارحة بين المسؤولين والنسوة: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ..﴾ [يوسف: ٥١]، أما امرأة العزيز فقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، حيث انطلق إلى الحياة العامة وصفحته أبيض من اللبن، بعد أن نقى أذهان الناس من الشبهات والشوائب التي يمكن أن تشوه النظرة إليه.

• فِتَنٌ الافتراء:

ما تزال الضغوط الغربية على الحركات الإسلامية تشتد بهدف إبعادها عن جادة الوسطية، حيث تنهمر عليها الفتن كالمطر، لتدفع بها نحو مسارات الجنوح والانحراف، وتذهب بها إلى سُبُل الافتراء على الله بدين غير دين الإسلام !

وهذا ليس بجديد على الدعوات الإسلامية، فمنذ فجر هذه الدعوة حاول أعداؤها القيام بهذا الأمر مراراً، وكادوا أن ينجحوا لولا تأييد الله لنبيه وتثبيته له، قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ [الإسراء:٧٣]؛ مما يشي بخطورة الأمر.

وبجانب الثبات على الرُّشد والتمسك بالحق، فإن على الإسلاميين مداومة الاتصال بالله واستمطار تأييده وتثبيته، حتى لا يقعوا في حبائل وفخاخ الغربيين الذين تكاد أن تزول من مكرهم وكيدهم الجبال الرواسي!

• تجارة اليهود:

ذُكر لفظ البضاعة أربع مرات في القرآن الكريم، وكلها في سورة يوسف، فهل هي المصادفة البحتة التي جعلت ثلاثة منها مرتبطة ببني إسرائيل والرابعة مجهولة الأصحاب؟ ام أنه الإعجاز القرآني الذي يكشف عن ارتباط اليهود بالتجارة والأموال والبضائع المُزجاة من سالف القرون ؟!

* * *

مَصارِعُ الظالمين

• الخزيُ الثقافي:

كم تَجبَّر كثير من الأقوام على أنبيائهم لكن نهاياتهم كانت وخيمة، وكم طغى كثير من الجبابرة على صلحائهم لكن عواقبهم كانت سيئة !

وهناك أقوام أمْلَى الله لهم وأجَّلَ عذابهم إلى الآخرة، كقوم إبراهيم، فإن القصة انتهت – كما في القرآن – بتأجيجهم لنار عظيمة لإحراق إبراهيم عليه السلام، لكن الله جعلها برداً وسلاماً عليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، فلقد سفّه إبراهيم أحلامهم، وأوضح تهافت معتقداتهم، فلجأوا إلى النار لمحاولة إحراق كل انتصار حققه عليهم في جبهة الأفكار، لكن السحر انقلب عليهم والكيد عاد إليهم، وقام رب إبراهيم بانتزاع خاصية الإحراق من النار، فصارت برداً وسلاماً على إبراهيم!

وبهذه النتيجة يكونون قد سقطوا في الحضيض الثقافي، وهَوَوْا في أعماق التسفُّل الفكري، بما يعني أن القصة انتهت بالخزي لا بالهلاك، وبالعار لا بالدمار!

• صيحةُ الحضارة الغربية:

قال تعالى عن قوم ثمود: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، ولقد أخذت أمةَ المسلمين في هذا العصر صيحةُ التخلف الممزوجة بعقدة النقص أمام التفوق الغربي، وهي مثل صيحة قوم ثمود ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، وذلك نتيجة تمرد المجتمعات الإسلامية على القوانين والسُّنن والتزام الغربيين بها، ونتيجة هذه الصعقة هي أن المسلمين صاروا غثاءً أحْوَى لا يَملكون فاعليةً ولا يهتدون سبيلاً!

• توظيف:

لابد من توظيف سُنَن المجتمعات قياماً وسقوطاً في تحقيق الهداية الاجتماعية، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]؛ إذ لن يستفيد من آيات السُّنَن إلا من استخدموا عقولهم في توظيف هذه السُّنن لصالح تحقيق الهداية الاجتماعية، وذلك وفْقَ مُستَطاعاتهم ووفق مُمْكِنات الواقع.

* * *

تَسفُّل الآدميّين

• من الملائكية إلى الحيوانية:

الإنسان كائن وسط بين الملائكة والحيوانات، حيث يشترك مع الملائكة في أشواق البُعْد الروحي، ويَتّحد مع الحيوانات في شهوات البُعد الطيني، ولا شك أن مراكمة الطاعات صعودٌ في درجات الترقّي نحو الملائكية، ولا ريب أن مراكمة المعاصي هبوطٌ في الدّرَكات نحو الحيوانية، ولا تزال أخلاق الملائكة وخلائق الحيوانات تتنازع الإنسان ما دام فيه رَمَقٌ من حياة.

وقد رأينا أن إبليس استغل رغبة آدم في السُّموق نحو الملائكية والخلود في الجنان حتى دفعه نحو التسفل، ولأن تذوق الشجرة هو عصيان يذهب بالإنسان نحو خلائق الأنعام فقد أفقَد آدمَ وحواءَ على الفور صفة إنسانية وهي السّتْر، قال تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ... ﴾ [الأعراف: ٢٢]، إذ أن الحيوانات وحدها هي من تسير عارية بدون تغطية سوءاتها، ولنتأمل جملة: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾، أي أنزلهما عن رتبة الطاعة بتغريره وخداعه.

• هبوط العصيان:

مَن تَمَعَّن سائر الأوامر القرآنية سيجد أنها مراقي ترفع الإنسان نحو المعالي، ومن تدبَّر نواهيه سيجد أن القرآن يستأصل بذلك أخلاق السقوط وطبائع الانحطاط من جوانح الإنسان، ويزيل كافة الثَّواقل التي تَنحَطُّ بالإنسان إلى أسفل سافلين.

ولذلك يمكن القول بثقة إن عصيان أوامر الله هو هبوط من القمم إلى القيعان، ويؤيد ذلك ما ورد في القرآن عندما أمر الله إبليس بالسجود لآدم فأبى، فقد عاجله الله بالعقوبة قائلاً: ﴿ فَٱهْبِطْ مِنْهَا .. ﴾ [الأعراف: ١٣].

• تجسيدٌ المعاني:

جاء القرآن بياناً واضحاً للناس، ولكي يوضح لهم خطورة المعاصي فقد جسّد العقوبة بصورة حسية، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا.. ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فكأن التقوى لباسٌ مادي، عندما سلط عليه إبليس وسوسته أحرقه؛ ذلك أن لباس التقوى يحجب عورات آدم وحواء: ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، نعم فإن التقوى تحجب عورات الإنسان النفسية الداخلة ضمن تكوينه الترابي، وهي هنا الطمع وحب الخلود، فقد قال إبليس لآدم كما في الآية نفسها: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

ولو كان اليوم كل من يتعرض لوسوسة إبليس تسقط ثيابه كلما استجاب له؛ لخرج الناس عُراةً إلا من رحم الله وهم قليلون جداً، ولذلك فقد ذكَّر الله أبناء آدم بهذا الأمر وهو يُوجِّههم إلى التزيُّن والتستُّر، وحذَّرهم من الوقوع في مجال الفتنة الإبليسية فقال: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦-٢٧]، ومن ثم فإن الإيمان يصبح مثل الحصن المادي الذي يحمي الإنسان من غوائل المعاصي واغتيال الشياطين.

* * *

صناعةُ الفَراعنة

• النَّفخُ في الطغاة:

إن رؤية الجماهير وهي تهتف في موكبك بحياتك، ورؤية الحشود وهي تلبي دعواتك مهما كانت تافهة أو مؤلمة، لاشك أن هذا ينفخ في المرء حتى يُطغيه، حيث تنبجس عيون الكبر من أحجار ذاته الصلصالية: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ٧].

ولقد وصل فرعون إلى قمة الطغيان بادعائه الألوهية عندما رأى الشعب المصري يهتف بحياته، كما أشار إلى ذلك تعالى بقوله: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ..﴾ [النازعات: ٢٣ - ٢٤]، وينم فعل الحشر عن بالغ الإهانة للناس الذين يُدفَعون كالأنعام من قبل جنود الطاغية، ثم إن استخدام حرف الفاء في العطف يشير إلى هذه المشاعر التي اختلجت في صدره، حيث انتفخ حتى ظن أنه إله، ونادى في الناس معلناً أنه صار إلهاً، وليس أي إله وإنما الرب الأعلى!

• خطورةُ الملأ:

زيَّن الملأ لفرعون الطغيان وحرّضوه على ظلم موسى وقومه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، وهؤلاء هم نافخوا كير الفتنة والصُّنّاع الحقيقيون للطغاة في كل زمان ومكان، حيث تتكسّر بقايا الخير في الحكام على أحجار الوسوسة والتحريض التي تقوم بها بطانات الظلم والضلال؛ ولذلك فقد كان الخلفاء الراشدون يعتنون جيدا ببطاناتهم.

• تفريق الطغاة للشعوب:

من أهم أعراض الطغيان وثماره الزَّقّومية تقسيم المجتمع إلى شيع وأحزاب، ولذلك ذكر الله هذا الأمر بجانب حديثه عن استعلاء فرعون وطغيانه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص :٤]، كأن هذا التقسيم من السمات الثابتة للطغيان، إذ يؤدي إلى انشغال الشعوب بنفسها، مما يطيل من أعمار الطغاة.

• آية اللّه فرعون:

من لم يعتبر بآيات الله المبثوثة في الأكوان والمجتمعات صار آية لغيره، وأبرز مثال لذلك هو فرعون الذي كفر بكل آيات الله بما فيها المعجزات التسع لموسى؛ فجعله الله آية للناس إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس :٩٢].

ولقد حضّ الله الناس على إزالة حجاب الغفلة وعلى اكتشاف الآيات الاجتماعية والاستفادة منها قبل الوصول إلى هذا المصير، فقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، إنها دعوة قرآنية بيِّنة للتبصّر بالعواقب والاعتبار بالمآلات، من خلال السعي الناظر في الأرض التي ما فتئت تحتضن الكثير من آثار المكذبين.

* * *

آفَاتُ الفراعنة

• احتكارُ الحقيقة:

لم تَرد مفردة أرى بالمفرد في سياق الحديث عن الرؤية المعنوية لا المادية إلا مرة واحدة، على لسان أطغى طغاة الأرض فرعون، قال تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩]؛ فهو واثق من صوابية آرائه كأنه يرى رؤاه حسياً بأمّ عينيه، وهذه هي أسوأ صور احتكار الحقيقة والتي أكّدها فرعون بقوله: ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾!، والرشاد هو منتهى العلم والخير والإخلاص، ثم إنه قال هذا الكلام في معرض الامتنا عليهم!

• الوصاية على العقول والقلوب:

لا زال ديدن الطغاة في كل عصر ومصر هو تنصيب أنفسهم أوصياء على عقول الناس وقلوبهم، كما فعل فرعون مع السّحَرة: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، فحتى الإيمان وهو شيئ قلبي يحتاج أصحابه إلى استئذان من الطاغية فرعون، وأضرابه كثيرون ولا سيما في هذا العصر الذي يزخر بالفراعنة، حيث يتسلطون على حياة الناس، ويفرضون أنفسهم أوصياء على عقولهم وقلوبهم بألسنة الحال والقال.

• بُخلُ فرعون:

نستنتج من دقّة النَّص القرآني أن فرعون كان بخيلاً وليس كريماً كما أشيع عنه، فقد قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤١]، حيث يتضح بخل فرعون في هذه الآية من ثلاثة أوجُه:

الأول: المُشارطة قبل البدء بالعمل وهذا لا يفعله الناس مع بعضهم إلا مع من كان بخيلاً، فكيف وهو ملك ومن عادة الملوك أن يعطوا بسخاء من لا يخشى الفقر؟

الثاني: أنهم لم يطمعوا من فرعون إلا بمقابل ما يبذلون من جهد، إذ أن الأجر يكون على قدر الجهد بعكس الثواب الذي يكون أكثر من المُستَحَق!

الثالث: أنهم لم يتوقعوا إعطاءهم هذا الأجر إلا إذا غَلبوا موسى وليس مقابل بذلهم للجهد، فقد قالوا له: ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾.

• التقليدُ في الإيمان:

كان فرعون مقلداً في إيمانه لبني إسرائيل؛ ولذلك لم يُقبل منه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، ولو قال: آمنت بالله وحده؛ فلربما أشفق الله عليه وقبل توبته رغم أن الوقت لم يكن في صالحه، والعجيب أن هذا التقليديّ في إيمانه كان مُجَدداً في كفره وطغيانه، فقد أتى بما لم تأتِ به الأوائل !

* * *

قَلائدُ الاقتداء

• اتّباعُ محمد:

التقليد حالة مَرَضية وآفة سقيمة، فحتى محمد ﷺ ينبغي اتباعه وليس تقليده، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ذلك أن صاحب الاتباع يمتلك عينين مبصرتين، فسير خلفه ﷺ على بصيرة، وذلك بمعرفة ما يقول وفَهْم ما يدعو إليه، وبفقه ما يفعل ووعي ما يترك، ولهذا يُطلق على المقتدين بمحمد ﷺ مصطلح أتباع محمد أي الذين ساروا في دربه على بصيرة!

وتشير فاصلة الآية إلى أن الهداية لا تَنبُت إلا في أرض الاتباع المحروثة بالعلم والمُسيَّجَة بالطاعة.

• الاقتداء بالهُداة:

لا أفضل من أن ينهل العاقل هدايته من شلّال القرآن ويرتشف من معين السنة النبوية، ولكن الأمر يحتاج في كثير من الأحيان إلى رؤية تلك الهدايات النظرية وهي تتجسد في سلوكيات بشر من لحم ودم، إذ يتضح عندها ما كان غامضاً ويَسهُل ما كان صعباً، ولذلك قال الله لحبيبه محمد ﷺ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وذلك بعد أن سرد له كثيراً من قصص الأنبياء مع أممهم وجرائم الطغاة مع شعوبهم، بحيث يستنبط منها الدروس الإيجابية والسلبية، فيتبع ما هو حسن ويتجنب ما هو سيئ!

• قدوةُ الدعاة:

جعل الله التفرغ للدعوة إلى الله فرض كفاية، فقال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ..﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فالأمة هنا هي الطائفة وإنما سمّاها أمة لما ينبغي أن يتجمع فيها من خِلال الأمة ومكوناتها، كتجمع التخصصات والأبعاد، وتجمع

شتات الأفكار والرؤى، وائتلاف العزائم والإرادات، وتَوحُّد الأهداف والمقاصد، بحيث يكونون قدوات للأمة كلها، فلقد كان إبراهيم إماماً يُقتدى به في سائر الخيرات، فقال الله عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً ..﴾ [النحل: ١٢٠].

• دعوى بدون برهان:

كم من أبناء المسلمين من يَدّعون حُبّ الله دون أن يمتلكوا البرهان العملي على ذلك الحب، مع أن هذا البرهان معلوم بالضرورة، فقد ورد بنص صريح في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ..﴾ [آل عمران: ٣١]، ومن ثم فإن من لم يتبع محمداً ﷺ فليس محباً لله ولو نظم القصائد والمدائح وتفنّن في صياغة المقالات والشعارات، فالغاية هي الاتباع في منهج عمارة الأرض وصناعة الحياة.

* * *

عُتوٌّ عَادٍ

• وحدة الرسل:

كما أن الأخلاق لا تتجزأ فإن القيم لا تتبعّض، ومن ثم فإن الإسلام بمختلف شرائعه منذ خلق الله آدم، هو دين واحد، وكل الأنبياء إنما هم مبلغون لرسالة واحدة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وربما كان هذا هو المقصود من قول الله ﷻ عن قوم عاد: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ..﴾ [هود: ٥٩]، إذ أن الله لم يرسل إليهم إلا هوداً، فكأن تكذيبهم به هو تكذيب بكل الرسل أو كأن عصيانهم له يكفي لكي يكونوا عصاة لكل الرسل؛ نظرةً لوحدة الأصول العقدية للإسلام!

• رياحٌ العُتُوّ:

عندما عتى قوم هود أهلكهم الله بريح صرصر عاتية: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٧]، وهذا هو ما يُسمّونه بالجزاء من جنس العمل، وهو مظهر من مظاهر عدل الله المطلق.

• رياحٌ مبصرة:

لأن الظواهر الطبيعية تأتمر بأمر ربها؛ فإن المؤمن لا يَخشَاها وإنما يخشى الله وحده، فقد قال تعالى عن الرياح التي أرسلها على قوم عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ولأنها تدمر بأمر ربها فقد دمرت كل شيء إلا هوداً ومن آمن معه !

إنها ليست رياحاً هوجاء كما يصفها البشر، وإنما هي رياح مبصرة تمضي إلى حيث شاء من أرسلها، ذلك أنها من جنود السماء وتأتمر بأمر رب السماء!

• قوة القدوة:

عندما يكون المؤمن خالص الدوافع في سريرته، فارع القدوة في سيرته، شديد الالتزام في مسيرته، فإنه في الحد الأدنى سيَهُزّ اليقين الباطل عند الآخر، مهما كانت عداوته مستحكمة، ألم يقل الملأ من قوم هود وهم يُشنِّعون عليه: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وركّزوا على كلمة لنظنك حيث ستُحسّون بشَكِّهم الأكيد رغم استخدامهم لحرف التوكيد في بداية الكلمة، ذلك أن حرف اللام يؤكد الظن!

* * *

دُروسُ السَّحَرة

• قُوَّة الإيمان البرهاني:

لقد اتّسم السّحَرة بقوة إيمان منقطعة النظير، حيث تَحَدّوا الوعيد الفرعوني بقتلهم والتمثيل بهم أحياء؛ فرَدّوا عليه بقولهم: ﴿ ..لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ [طه: ٧٢]، وفي هذا الأمر إبراز لقوة الإيمان البرهاني على الإيمان العاطفي والتقليدي، فقد رأوا برهان رسالة موسى ودليل قدرة الله الخارقة، من خلال العصا التي رماها موسى فابتلعت كل حبالهم وعصيّهم.

• الأفكار لا الأشخاص:

قال تعالى على لسان السَّحَرة: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ...﴾، فقد قدَّموا الفكرة المؤيَّدة بالبَيِّنات والبراهين على الشخص المتسلح بأموال الترغيب وأدوات الترهيب.

وقد أعلمنا القرآن أن الشخصانية قد تصل بأصحابها إلى حَد العبادة؛ حيث أخبر عن أهل الكتاب، فقال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

• قيمة العلم:

قال الله على لسان السحرة عندما هدَّدهم فرعون بالقتل من خلاف: ﴿ قَالُواْ لَا ضَيۡرٌۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٥٠، ٥١]. فلماذا أسلموا من دون الجمهور رغم أنهم كانوا خصوماً ومنافسين لموسى؟!

لقد أسلموا لأنهم كانوا علماء في علم السحر، فأدركوا الفرق الواضح بجلاء بين السحر والتخييل من جهة وبين القدرة الخارقة والمعجزة الباهرة من جهة أخرى، بينما كانت الجماهير جاهلة ولا تفرق بين ما فعله موسى وما فعله السحرة، ولذلك فقد انطلت عليهم حيلة فرعون عندما قال عن موسى وهو يخاطب السحرة: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ..﴾ [طه: ٧١].

• الإكراه المعنوي:

ورد على لسان السحرة وهم يخاطبون فرعون، قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]، والإكراه ليس بالضرورة أن يكون باستخدام العنف، فقد يكون بقوة المال الذي يدفع الإنسان إلى عمل ما يخالف قناعاته، كما فعل فرعون في هذه الحالة مع السحرة، حيث استغل حاجتهم فأغراهم بالمال الذي لم يكن يعطيه لأحد إلا بهذه الطريقة، فقد كان شديد البخل حتى حرم الناس من حقوقهم وحمّلهم فوق طاقتهم، ويؤكد على ذلك تذييل الآية بفاصلة: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، فهو خيرٌ بعطائه الكريم وأبقى بجزائه الخالد.

* * *

أسْرارٌ الغابرين

• حضاراتٌ مائية:

أشار القرآن إلى أن كل الحضارات الكبيرة نشأت على أنهار، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦]، وهذا ينطبق على حضارات الصين والهند والعراق ومصر. وهي إشارة أيضاً إلى أن حضارات العرب نشأت على أنهار وخاصة حضارة قوم عاد العظيمة، ويؤيد هذا الأمر الكشوفات الحديثة التي قامت بها أمريكا وهي تبحث عن النفط عبر الأقمار الصناعية في صحراء الربع الخالي، حيث اكتشفت وجود آثار نهرين وبحيرة تحت رمال الصحراء، وعلى ضفافها بقايا قصور ومنشآت ضخمة تدل على وجود حضارة عظيمة في هذه البقعة من الأرض.

• نوح في الجزيرة العربية:

اختلف المؤرخون ورواة السير حول المنطقة التي عاش فيها نوح عليه السلام، وهناك قرينة قرآنية تدل على أنه عاش في الجزيرة العربية، قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ومن المعلوم يقيناً أن قوم عاد عاشوا في الجزيرة العربية ومن حضرموت انطلقت دولتهم، ولا شك أن الخليفة تابع لسلفه زماناً ومكاناً، بمعنى أن قوم عاد عاشوا في ذات الأرض التي عاش فيها سلفهم من قوم نوح، ويشير هذا الأمر أيضاً إلى أن حضارة عاد شملت الجزيرة العربية كلها مع تركزهم في حضرموت أو وجود عاصمتهم فيها، وهذا ما يتناسب مع تعظيم الله لحضارة هؤلاء الناس التي وصفها بقوله: ﴿ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾ [الفجر: ٨].

ومع أن قوم ثمود كانوا في شمال الجزيرة إلا أن نبي الله صالح ذكّرهم بأن الله جعلهم خلفاء بعد عاد، كما في الآية ٧٤ من سورة الأعراف، وهذا يعني أن أقدم حضارات الدنيا قد استوطنت الجزيرة العربية.

• حضارة اليمن:

توحي بعض آيات القرآن بأن اليمن كانت ذات حضارة عظيمة منذ قديم الزمان، وأنها كانت ذات عيون وجنان خضراء وبنيت فيها آثار ضخمة ولا سيما أيام قوم عاد، قال تعالى على لسان نبي الله هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٤].

ومما يؤكد أن جزيرة العرب كانت مروجاً خضراء، ما قاله الله أيضا عن من سكن شمال الجزيرة وهم قوم ثمود على لسان صالح: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨]، ولأن قوم ثمود ورثوا قوم عاد وشابهوهم في كثير من الأشياء؛ فقد اعتبرهم القرآن عاداً الثانية، نستنتج ذلك من تسمية القرآن لعاد المعروفة بعاد الأولى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠، ٥١]، وقد ذهب عامة المفسرين إلى أن عادا الأخرى هي قوم ثمود.

* * *

دُروسٌ داوُودية

• هيبةُ المُلك:

لابد للملك الشرعي من هيبة تضمن انتزاع الحقوق من الأقوياء وتردع الظالمين، وهذه الهيبة لا تقوم على القَسْر والطغيان، وإنما تنبني على الإنجاز المتميز والعدالة الصارمة.

ولما كان داوود نموذجاً للحاكم المسلم ذي الهيبة المشروعة؛ فقد منحه الله مقوّمات هذه الهيبة بشقيها المادي والمعنوي، ففي الشق المادي نجد أن الله جعل الجبال والطيور تُسبِّح معه، وفي الشق المادي ألان تعالى له الحديد مثل الطين، فكان يصنع للناس الدروع والسيوف، وقد جمع الله شقي الهَيبة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وكرر ذلك في الآيتين ٧٩ و ٨٠ من سورة الأنبياء.

وبهذه المهابة المادية والمعنوية شدَّ الله مُلك داوود وآتاه الحكمةَ وفَصْلَ الخطاب، كما ورد في قوله تعالى لحبيبه محمد: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧ - ٢٠]، ولأن داوود قدوة لمن بعده في شؤون الدعوة والدولة فقد أمر الله نبيه محمدا بأن يَذكره حتى يستنبط من ثنايا قصّته الدروس النافعة.

• جمالُ الصوت:

تمتلك الشخصية الآسرة صفات كثيرة ذات جاذبية عالية، ومن هذه الصفات الصوت الجميل الذي يقتحم الآذان فيستوطن القلوب.

ولقد كان داوود عليه السلام ذا شخصية نادرة تتسم بالجاذبية العالية، ومن ذلك أنه كان صاحب صوت نَدي ولَحْن شَجي تطرب له الخلائق والكائنات بما في ذلك الطيور والجبال، كما قال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

ومن المعلوم أن داوود كان الأندى صوتاً بين الأنبياء، مثلما كان يوسف الأجمل صورة، حتى أن النبي ﷺ عندما أشاد بصوت أبي موسى الأشعري العذبة للقرآن، قال: «لقد أُعطيَ أبو موسى مزماراً من مزامير داوود»!

• وراثة المواهب:

لم يرث سليمان عن أبيه داوود المُلك لأنه ابنه، ولكن لأنه كان خليفته في المواهب والعلوم والكفايات، حتى أنه تفوّق على أبيه في بعض نواحي العلم في حياته، حينما فهَّمَه الله ما لم يفهم داوود في إحدى المسائل كما هو معلوم.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، وهذا هو سر إعلان سليمان في هذا المقام ما أعطاه الله من مواهب وعلى رأسها فهم منطق الطير ومعرفة كل ما يحتاجه المُلك من تنظيم للجيوش وتصنيع للأسلحة، ومن هيبة تمتلئ بها القلوب، وكأنه ينفي وراثته للمُلك وفق الطرق التقليدية المعلومة عند الأُسَر المالكة!

* * *

يَقينُ الأنبياء

• الثقةُ المُطلَقَة:

كان إيمان الأنبياء قوياً كالجبال، حيث منحهم ذلك الإيمان ثقة مطلقة بالله في أسوإ الظروف، فقد أيقنوا دوماً بأن الله سيتدخل مباشرة في الوقت المناسب دون أن يَعلموا كيف.

فهذه الثقة المطلقة هي التي جعلت نوحاً يصنع سفينةً مائية على اليابسة وهو لا يعلم أن الله سيأتي بالطوفان. وهذه الثقة هي التي جعلت موسى يتجه نحو البحر رغم عدم وجود سفينة، وعندما اقترب منه جيش فرعون وصاح قومُه بضَعفهم البَشري: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء: ٦١]، نطق بلسان الواثق: ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢]، ولم يكن يعلم أن عَصاهُ ستصنع ما لم يخطر على البال وما لم تستطع أن تفعل بعضه التكنولوجيا الحديثة بعد التقدم العلمي الرهيب في هذا العصر!

هذه الثقة المطلقة هي التي دفعت إبراهيم لخوض النار دون أن يدري أنها ستصبح برداً وسلاماً عليه، وهي التي جعلت ابنه إسماعيل يُقدِّم رقبته للسِّكّين دون أن يعلم أن الله سيَفديه بكبشٍ عظيم!

هذه الثقة هي التي جعلت إبراهيم يترك زوجته وابنه في وادٍ غير ذي زرع وسط جبال بركانية خالية من أي غطاء نباتي، دون أن يعلم أن الله سيُفجِّر لهما عينَ زَمْزم ويَسوق لهما الناس من كل فَجٍّ عميق، حاملين معهم أطيب الطعام وأزكى الثمار!

هذه الثقة هي التي جعلت موسى ينزل بقومه في صحراء سيناء التي لا يوجد فيها طعام ولا ماء، ولم يكن يعلم أن الله سيُطعم قومه من المَنِّ والسَّلْوى ويَسقيهم الماء العَذْب من اثنتي عشرة عَيناً بعد أن أمره الله أن يضرب بعصاه الحجر.

وهذه الثقة هي التي دفعت أمّ موسى لرَمْي فلذة كبدها في اليَمّ، ودفعت فتية إنطاكيا للدخول في ذلك الكهف العجيب الذي ناموا فيه ثلاثة قرون ونيِّف!

• عصا اليقين:

باليقين الجازم بقوة الله جعل الله عصا موسى أداة لضَرْب البحر الذي انفلق نصفين، ولضرب الحجَر الذي انْشقّ عن اثنتي عشرة عيناً تصب الماء، وبهذا اليقين يمتلك المؤمن عصاً غليظة يتوكأ عليها في طريقه نحو عمارة الأرض وصناعة الحياة، ويَهُشّ بها على غنم الأسباب دافعاً بها نحو العمار لا الدمار، ويواجه بها الأعداء والمتآمرين!

• الإيجابية:

عندما وصل موسى إلى ماء مدين ووجد الناس يَسقون دون امرأتين، لم ينشغل بمأساته ولم يُذهله تشرُّدُه عن إيجابيته التي تربَّى عليها؛ فقد قال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣]، وعندما أوضحتا له بأنهما لا تسقيان حتى ينتهي الآخرون، إما لاستضعافهما لأنهما أنثيان وأبوهما شيخٌ كبير، وإما لتحرّزهما من المخالطة، عند ذاك تولَّى السَّقْي لهما بدون مقابل ثم تولّى إلى الظل طالباً حاجته من الله: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، وسرعان ما جاء الخير يهرول إليه بقدمي ابنة شعيب، حيث حصل على الأمن والمأوى والعمل والزوجة دفعةً واحدة!

* * *

هُمومُ الأُمَّة

• هَمُّ الأُمّة:

لقد جعل اللهُ خليلَه إبراهيم أمَّةً وحدَه؛ لأنه كان أمّةً في أخلاقه وخلاله الشاملة، وأمّةً في أبعاد شخصيته المتكاملة، ثم لأنه كان يَحمل هَمّ الأمة بين جوانحه الإنسانية الواسعة، ذلك الهَمّ الذي يُذْكي هِمَّتَه، والذي ظهر في ثنايا أقواله وأفعاله وحتى في دعائه، فقد قال مع ابنه إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ ..﴾ [البقرة: ١٢٨]، ومن ثم فلا يمكن أن يكون من أبناء الأمة المسلمة من لم يتخلَّق بأخلاقها، ومن لم يحمل في ثناياه همومَها ويسعى بهمّته لتخفيف أوجاعها، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

• مُقوِّماتُ الأُمّة:

بعد دعاء إبراهيم عليه السلام السابق لربّه بأن يجعل منهم أمةً مسلمة لله، أشار إلى مقومات قيام هذه الأمة، وكما يبدو لي فإنها تتلخّص في:

- البَعثُ الرسالي:

أي وجود رسالة تقوم بتغيير حياة الناس رأساً على عقب، والتي عبّر عنها إبراهيم بقوله: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا .. ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فإنه مبعوثٌ في ذاته وباعثٌ لأمّته.

- الحِسُّ الجَمْعي:

والذي يأتي عن طريق رسول ينتمي إلى ذات أرضية الأمة: ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ وذلك حتى تكون قابليات طاعته واتباعه أشدّ، بجانب أن إمكانات فهمه والتفاعل معه تكون أقوى، ولهذا فقد بُعث كل نبي بلسان قومه.

- **المعرفة النافعة:**

والتي تَسُدُّ الفجوات وتغلق الثقوب، وتقارب بين الأفكار والعقول: ﴿ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ..﴾ [البقرة: ١٢٩].

- **التَّزْكية القَلبية:**

والتي تضمن استئصال أشواك الظغائن وزراعة أشواق الائتلاف: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾، حيث تقتلع الأنانيات والعصبيات، وتغرس شتائل المَحَبّة والتواضع.

ولقد اجتمعت هذه المُقوِّمات في شخصية المصطفى محمد ﷺ، فأوجد بمشيئة الله خيرَ أمّة أخرجت للناس، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢].

• مِنَّةُ الأُمَّة:

إن تَحوُّلَ الناس من أعداد متنافرة إلى جماعات متضافرة، ومن كيانات عصبوية متباينة إلى تجمعات واسعة متعاونة لهي نعمة كبيرة؛ لأنها تنقل طاقة هؤلاء جميعاً من دائرة التآكل إلى مقامات التكامل، ومن ساحات التحارب إلى مساحات التحابب، ولهذا فقد امْتَنّ الله على العرب خصوصاً، بحكم أنهم أمّة الشُّهود على الأمم، بقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فلقد كانوا يعيشون في غياهب الضلال، ومن أهم أعراضه انعدام الوَعي الجَمْعي وطغيان الحِسّ العصبوي الذي يدفعهم إلى الشتات وينحو بهم منحى الاقتتال لأتفه الأسباب، مما جعلهم لُقمةً سائغة للأمم التي تحيط بهم، ولاسيما الفرس والرومان!

• التّدبُّر طريقُ التّوحُّد:

من يتدبر الآيات التي ورد فيها مصطلح التدبر سيلاحظ أمرين:

الأول: أنها جاءت كلها بصيغة الفعل المضارع الذي يفيد الديمومة والاستمرار، كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤].

الآخر: إسناد فعل التدبر إلى جمع المذكر السالم: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، مما يَشي عن أن التدبر يكشف عن عوامل الالتقاء ويُبرز قواسم الاشتراك، وأنه يَجْتثُّ عواملَ الفُرقة وأسبابَ النزاع، ولذلك قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، ومن ثمّ فإننا عندما نَحْتسي رحيقَ التدبر فإننا نتخلَّص من ظمأ الفُرْقة.

* * *

قَوانينُ السّماء

• قانونُ السببية:

إن قانون السببية يُرتّب النتائج على الأسباب وهو أمر لا يتخلف حتى في المعجزات الخارقة للعادة، فهذا نبي الله سليمان سخّر الله له الطير ضمن ما سخّر، وعلّمه الله منطقَ الطير، كما قال تعالى على لسانه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ ..﴾ [النمل: ١٦].

ولما كانت هذه النتيجة الخارقة خاصة بسليمان، فقد قال القرآن عن علاقته بالطير بأنها كانت قوية لدرجة أنه قال عنه: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ .. ﴾ [النمل: ٢٠]، ولم يَروِ القرآن مثل هذا عن غير سليمان، سوى ما روي عن أن الطير كانت تُؤَوِّب مع أبيه داوود، وهنا يظهر أثر الأسرة والبيئة بجانب الاستعدادات الخاصة.

• قانون الجَزاء:

لا قيمة للأشخاص بدون الأفكار، ولا حصانة للإنسان والأشكال وسائر موازين الأرض، فإن قانون الجزاء الرباني لا يحابي أحداً: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، لدرجة أن الله قال عن أقرب الخلائق له وأحبهم إليه وهو محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، فكيف بغيره من الناس؟!

• قانون العدل:

إن عدل الله نافذٌ وجزاءه صارم وميزانه دقيق، فلا يمكن أن يحابي أحبّ الناس إليه، ولذلك قال لمحمد ﷺ على الأرجح: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، فكيف بمن هو دونه في المكانة والإمكانات؟!

وفي ذات السياق قال تعالى لحبيبه محمد: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ومن هنا ناداه في مطلع سورة الأحزاب بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، ونلاحظ أنه ناداه بمقام النبوة، فكيف إذا ارتبط الأمر بمقام البشرية المَحْضَة ؟!

* * *

سُنَنُ الأوّلين

• اتّحادُ المُقدمات والنتائج:

يؤكد القرآن دوماً اطِّراد السُّنن وثباتها، بما يعني أن ذات المقدمات تؤدي إلى تحقيق نفس النتائج.

وفي هذا السياق يقول تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَ..﴾ [الإسراء: ٥٩]، أي لم ننزل على محمد خوارق مادية معجزة كما حدث للانبياء قبله، نتيجة كفر أولئك السابقين بتلك الآيات مما أدى إلى نزول العذاب الذي استأصل شأفتهم، والله رحيم بهذه الأمة بحكم أنها خاتمة الأمم ولا يريد استئصالها!

• ثباتُ السُّنن:

مع أن الأحداث تتبدل والحوادث تتغير، إلا أننا نسمع مقولة: «التأريخ يعيد نفسه»، والمقصود بهذه المقولة السُّنن الثابتة التي تنتظم تحتها الحوادث، مهما تغيرت أشكالها وعناوينها وتفاصيلها، وقد صرَّح القرآن بهذا الثبات، فقال: ﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]، ونلاحظ أنه ذكر ثبات السنن بعد ذكره لسنة المكر الذي يحيق بأهله، وقد هدد الله المشركين بهذه السنة عبر رسوله محمد فقال: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٨].

• اطِّرادُ التكذيب:

نتيجة تشابه الطبائع البشرية، وعدم اتعاظ اللاحقين مما حدث للسابقين، فإن الخطوط العريضة في القصص البشرية تتكرر في كل زمان ومكان، ومنها سُنّة التكذيب، سواء التكذيب بالوحي أو بالرسل، ولهذا ورد مصطلح (أساطير الأولين)

الذي أطلقه المكذبون على الوحي في تسعة مواضع من القرآن، غير عشرات الألفاظ والمصطلحات الأخرى التي تفيد معنى التكذيب.

ولذلك قال تعالى لخاتم الرسل ﷺ عن كفار قريش: ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨١]، سواء بالنسبة للوحي أو بالنسبة للرسل، وفي آية أخرى قال له تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣].

• ثباتُ الوحي:

إن الوحي الذي تَنزَّل في التوراة والإنجيل والقرآن والزبور والصحف، لم يُغيّر كُلّيات الإسلام الواحد منذ بدء الخليقة، وقد قرر الله هذه الحقيقة في عديد من الآيات وبأساليب عدة، ومن ذلك قوله تعالى عن القرآن: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦]، أي أن تعاليمه الكُلّية موجودة في الكتب السابقة، لكنها اجتمعت في كتاب ضمن الله له الخلود وتعهّد له بالحفظ.

وحاجَج الله المكذبين بالقرآن وبنبوة محمد بهذا البرهان، فقال: ﴿ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]؟!.

* * *

آفاتُ المُتديِّنين

• حُسَّادُ الرؤيا:

هناك أصنافٌ من الناس يَسكُن الحسدُ قلوبهم ويتغلغل في ثنايا أنفسهم، إلى حَد أنهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، وحتى لو كان ذلك العطاء ما زال في عالم الرؤيا، ورغم أن الرؤيا قد تكون أضغاث أحلام، ومن هؤلاء إخوة يوسف الذين أعمى الحسد أبصارهم وطَمَس بصائرهم.

وربما كان علم أبيهم يعقوب بهذه الخصلة فيهم هو الذي جعله يقول ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، ويبدو أن يوسف لم يكتم رؤياه فوصلت إلى أسماعهم، مما أدى إلى تحريك كوامن الكيد في قلوبهم الحاسدة وأنفسهم الأَمّارة بالسوء.

• الصلاحُ صُعود:

من يبغي أن يتفَيّأ أبهاء الصلاح؛ فإن عليه أن يرتقي مصاعد السُّمُوّ، ولا يمكن أن يصل إلى قمم الصلاح من يسير في طريق النزول الذي اندلق فيه إخوة يوسف حينما قالوا: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، فقد عزموا على ارتقاء قمم الصلاح بعد السقوط في مهاوي القتل والتآمر!

• التّنطُّع اليهودي:

التنطُّع آفةٌ تسكن العقل فتؤدي إلى تكبير ما هو صغير وتصغير ما هو كبير، ويصنع المتنطعون تناقضات غريبة، وقد تكون أعذارهم أقبح من ذنوبهم!

وقد حدَّثَنا القرآن أن بني إسرائيل عندما ذهب موسى لميقات الله في جبل الطُّور؛ جمعوا حُليَّهم الذي أخذوه من آل فرعون، وصنع لهم السامري به عجلاً اتخذوه إلهاً، فلما رجع موسى غضبان أسفاً وعنّفهم على ما فعلوا؛ قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧]، أي أنهم تورعوا عن حمل ذلك الحلي الذي أحلّه لهم موسى فأخذوه من غير رضاهم ﴿حُمِّلْنَآ﴾، ولذلك فقد قذفوه في الأرض، فصنع لهم السامري به عجلاً له خُوار وقال لهم: إن هذا إلهكم الذي ذهب موسى يبحث عنه فصدقوه وعبدوا العجل، ولم يصدقوا موسى أن هذا الحلي حلال عليهم رغم أنه مال من حاربهم وعذبهم وجعلهم سخرة له طيلة عهود من العذاب المُزْمن!

* * *

دَوَاهي اليهود

• النُّكولُ سببُ النُّكوص:

إن النكول عن العهود يتسبب في النكوص على الأعقاب والارتداد على الأدبار، ولاشتهار بني إسرائيل بنقض العهود والمواثيق، فقد استمروا في النكوص على الأعقاب كلما تقدم الزمان، حتى كتب الله عليهم التّيه في الأرض أربعين سنة في عصرهم الذهبي، عندما كان موسى وهارون بين أظهرهم، وكان موسى قد قال لهم: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٢١].

وبسبب استمرار طبيعة النكوص على الأعقاب ظل اليهود أمة صغيرة رغم عراقتهم التأريخية، واستمروا قرابة الفي سنة يتيهون في الأرض بلا سقف دولة يحميهم من بطش الأمم وغدر الزمان، وظل مُتديّنوهم بلا عمل سوى الوقوف أمام ما سمَّوه بـ(حائط المَبكى) وهو حائط البُراق، يبكون حالهم السيِّئ ويَندبون حظَّهم العاثر، وينتظرون مَهديَّهم المُخلِّص كما يفعل المسلمون اليوم تماماً!

• مَذلّةُ المُفتَرين:

إن الذين يَفتَرون على الله الكذب، سواء عن طريق التأويل الباطل أو الانتحال المزيّف؛ إنما يُعرِّضون أنفسهم لعقوبتين خطيرتين من الله وهما: الغضب عليهم، وإلحاق الذل بهم، وهذا ما حدث لبني إسرائيل عندما افتروا على الله العجل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٢]، وتُبيّن جملة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴾، أن هذا الجزاء ليس خاصا بأولئك اليهود ولكنه سنة ماضية في كل زمان ومكان.

• الغُلُوّ في الأسباب:

اشتهر اليهود بالأخذ بالأسباب قديماً وحديثاً، لدرجة أنهم ينظرون إليها كأنها تَملك جلب النفع لهم أو دفع الضر عنهم بذاتها.

ومن أمثلة ذلك ما أشار إليه قوله تعالى عن بني النظير: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]، ويتضح غلوهم في الاعتقاد بحماية الحصون لهم من خلال أمرين:

- تقديم الخبر «مانعتُهم» على المبتدأ «حصونُهم».
- ظنُّهم أنها ستمنعهم من الله ذاته وليس من محمد فقط !

وكأن فرط ثقتهم بالأسباب قد زعزع إيمانهم بوعيد الله!

• القَتلُ الحِسّي والمعنوي:

إن التكذيب قتلٌ معنوي، والقتل تكذيب حسي، ولقد قرَن الله بين هاتين الجريمتين اللتين مارسهما بنو إسرائيل، فقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، ونلاحظ من ثنايا الآية أن هذين المولودين المشؤومين إنما خرجا من رحِم الاستكبار!

* * *

مَخاطرُ السُّكوت

• جريمة السكوت:

إن الساكت عن الباطل يدخل مع المُبطل في باطله، ما دام لا يوجد ما يَمنعه من اعتراضه وإنكاره، كما قال ﷺ: «الساكت عن الحق شيطان أخرس»، وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٠]، فإن بعض اليهود هم من قالوا ذلك تأثراً بعقائد قاهريهم الفراعنة، لكن سكوت الآخرين أشركهم في الإثم، وصاروا للمتابع عن بُعد كأنهم يتبنون هذا المعتقد الباطل، ولهذا قال القرآن: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ... ﴾، كأنهم قد قالوا كلهم هذا الكلام.

• فعلُ السكوت:

السُّكوت فعلٌ سكوني سالب، فالساكت كالفاعل في الفعل.

فلقد وصف الله موسى وفتاه يوشع بأنهما: ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ [الكهف: ٦١]، وما نسيه إلا يوشع الذي قال: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ [الكهف: ٦٣]، ولما كان موسى قد سكت عندما نسي يوشع فكأنه قد شاركه في النسيان!

ومن هنا نستنبط أن السكوت في بعض المواضع قد يصبح فعلاً يستحق صاحبه الوزر.

• فسادُ المُخالطة:

قد لا يكون المرء مفسداً ولكن التحاقة بالتيار الجمعي قد يذهب به نحو اتّباع سبيل المفسدين، كما قال موسى لأخيه هارون: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، إنه يوقن بأن هارون لا يمكن أن يكون أمن المفسدين لكنه قد يتبع سبيلهم نتيجة الحرص على مخالطتهم وعدم الانفكاك عنهم!

• خطورة السكوت:

لمعرفة موسى عليه السلام بخطر السكوت عن قول ما يراه حقاً وصواباً، فقد اندفع للإنكار على من ذهب للتعلم بين يديه، رغم تعهده له بأنه سيصبر ولن يعصي له أمراً، ذلك أنه قد تَعوَّد على النطق فور أن يرى ما ينكره، لدرجة أنسته تعهده بالصبر والسكوت، ولكن الإنكار لا يكون إلا في ما عُلم من الدين بالضرورة، أما في المسائل الخلافية فإن الإنكار فيها لا يجوز.

* * *

آفاتُ الطّالحين

• احْتكارُ الصّلاح:

من غرائب المنافقين أنهم مع كل ما يقترفون من مفاسد لا يتورّعون عن ادّعاء الصّلاح، بل إنهم يحتكرون الإصلاح لهم وحدهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، بمعنى أنهم ليسوا صالحين فحسب وإنما هم مصلحون، وأن صلاحهم خال من كل شبهه ونقي من كل زيف، وتفيد كلمة إنما الحَصر والقَصْر فكأنما هم وحدهم الجالسون على كراسي الإصلاح!

وكما احتكروا الصلاح بألسنتهم الكاذبة فقد دمغهم الله بالفساد بسبب أعمالهم المنحرفة، بل وجعلهم أصل الفساد كأنه لا يوجد مفسدون غيرهم، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢]، ويستفاد هذا الحَصْر من ضمير الفصل هُم ومن تعريف المفسدين بالألف واللام كأن أعمالهم تدل عليهم بوضوح حتى صاروا أعلاماً في الفساد، هذا بجانب استخدام أداة الاستفتاح: «ألا» وحرف التوكيد: «إن» !

• عُراةُ الشَّرف:

يلجأ الكبراء كثيراً في درء الكلام القذر عنهم إلى ارتكاب أقذر الأفعال بغيرهم من الضعفاء، مثلما فعلت أسرةُ امرأة العزيز عندما تحدّثت نسوة المدينة أنها تُراود فتاها عن نفسه، فقد لجأوا إلى رمي يوسف في السجن بضع سنين، حيث كبّلوا حرية يوسف بالأغلال من أجل أن يَغُلّوا ألسنة الذين تحدّثوا عن امرأة العزيز بسوء !

وهذا ديدن الكبراء الظلمة في كل زمان ومكان، حيث يلجأون إلى ركوب الحائط القصير وهم الضعفاء والتخفي خلفه حتى لا يرى الناس عُريَهم !

• زُهدُ اللصوص:

غالباً ما يبيع اللصوص بضائعهم بأبخس الأثمان مقارنة بأسعارها الطبيعية، حتى قيل في المثل الشعبي: «بَيعة سارق»، إذا كان ثمن الشيئ زهيداً.

وهذا ما فعله السّيّارةُ الذين وجدوا يوسف في غيابة البئر وباعوه في سوق الرّقيق في مصر، فقد قال تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠]، ولا يدري هؤلاء الزاهدون بيوسف أنهم باعوا فرعاً من دوحة النبوّة وواحداً من أنفَس الرجال، وحتى بالمقياس الدنيوي فإنه سيصبح المسؤول على خزائن المال في مملكة مصر العظيمة آنذاك.

• تولّي المغضوب عليهم:

لا شك أن من تولّى الذين غضب الله عليهم فإن ذلك الغضب يلحق بهم، ولهذا فقد عجّب الله نبيه محمداً ﷺ من حمقى المنافقين فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [المجادلة: ١٤]، فما أتعسَهم وما أشدّ غباءهم حينما مدّوا حبالَ ودّهم لليهود الذين قطعوا حبالهم حتى مع الله!

* * *

نَوَائلُ التّوفيق

• سَبيلُ التوفيق:

في طلب التوفيق ينبغي للمؤمن أن يَتّبع الأسباب، ويتصل بالله في مُنطلقه ومَآبه، وهذا ما عناه نبي الله شعيب عندما قال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]، فهو يتوكل في الذهاب إلى الأسباب على الله وحده، ويعتمد عليه وحده في رحلة المآب، ولنلاحظ كيف قدّم كلمتي (عليه) و(إليه) على فعلي (توكلت) و(أنيب)، مما يفيد كمال التوكل من أي نقص ونقاء الإخلاص من أي شائبة.

وقد قال الله لحبيبه محمد: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠]، فهذا هو سبيل التفَوُّق والتَّوفيق في المَعاش والمَعاد.

• أنوارُ التَّسبيح:

عندما رمى أصحابُ السفينة يونسَ عليه السلام في البحر لم تنفعه في هذا الموقف الجَلَل معرفته بالسباحة وهي ضرورية بل إتقانه للتسبيح: ﴿ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ذلك أن التسبيح أنوار تضيء ظلمات الدروب ونيران تُحرق حَوالِكَ الخَطايا!

• انْبعاثُ النصر من الداخل:

ستظل العوامل الداخلية هي الحاسمة في صناعة النصر أو جلب الهزيمة في كل الظروف، حتى لو تدخلت الملائكة ذاتها كما يتضح من درس غزوتي بدر وأُحُد، فقد قال الله عن موقعة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩]، وقال عن أُحُد: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، وهكذا فقد انتصر الصحابة في بدر عندما استنفذوا الأخذ بأسباب النصر وخلا إيمانهم من شوائب

الضعف، بينما هُزموا في أُحُد لتفريط فريق منهم ببعض الأسباب المادية والمعنوية، مع أن الملائكة كانوا في أُحُد ثلاثة أضعافهم في بدر!

ولعمري فإنه درسٌ قرآنيٌ بليغ في وجوب الالتفات للسُّنَن الجارية في عالم الشهادة، فقد تكون أشدّ حَسْماً من السُّنَن الخارقة في عالم الغيب!

• كرامةُ الروح:

لقد كرّمَ الله بني آدم وفضّلهم على كثير ممّن خلقهم تفضيلاً، لكن هذا التكريم لا يتعلّق بالعنصر الطيني الذي يتكوّن منه جسم الإنسان، وإنما بالنفخة الروحية التي بَثّت في أعماقه أشواقَ التّنَقّي والتّرقّي، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]، فقد علّق سجود التكريم بحصول النفخة الروحية، ومن ثم فإن كل من يُغفل هذه الروح يَهُدّ التكريم الإلهي والتفضيل الرباني، ويُحرم من توفيق الله.

* * *

بَصائرُ دعية

• سلاحُ البَيِّنات:

إن البينات والبراهين هي من تستطيع فَكَّ التصاق الكافرين بأديانهم الباطلة، أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، فقد كان الكفار شديدي الالتصاق بأديانهم اليهودية والمسيحية والوثنية، ولكن رسول الله ﷺ بمكابداته النفسية والعقلية وبمجاهداته لهم بالقرآن استطاع أن يُزعزع ثقتهم بأديانهم ويَزْرع فيهم البديل وهو هذا الدين العظيم، وينبغي أن يلفت هذا الأمر أنظار الدعاة في كل زمان ومكان إلى وجوب تسلّحهم بالبينا الظاهرة وتَذرّعهم بالبراهين العلمية، بحيث تُخْلي العقول من شوائب الشرك وتُخلّصها من ثقوب الشكوك، ثم تملأها بصفاء التوحيد وتحقنها بترياق اليقين.

• التّذكير النافع:

ينبغي للداعية أن يبذل وُسْعه من أجل تحقيق النفع، وليس مجرد إسقاط الواجب، كما قال تعالى لأعظم رسله وصَفيّه من خَلْقه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، فهو ليس أمراً مطلقاً أي قُمْ بالتذكير ما نفعت الذكرى في الناس، ولكن عندما يتكرر التذكير العديم الجدوى بلا حساب، فإنه يصير نوعاً من العبث، ويتطلب ذلك من الداعية أن يفقه الواقع وأن يتعرّف على نفسيات المدعوين وطبائعهم، بحيث لا يستهلك جهوده وطاقاته مع من لا يستحقون ولا يستجيبون، وإذا كرّر التذكير فيكون مع تغيير الأسلوب أو الوسيلة أو الظرف، بحيث يدخل من أبواب متفرّقة ويَسلك سبلاً متنوّعة، وإذا سلك ذلك كله بدون جدوى فيتوجب عليه الانتقال إلى غير هؤلاء بعد أن يكون قد أقام عليهم الحُجّة.

• تَغايُر التبشير والإنذار:

يقترن الخوف والرجاء في أغلب آيات القرآن الكريم، لكن التبشير يتقدّم غالباً على الإنذار عندما يدعو الإنسان غيره، ولهذا قال تعالى للداعية الأعظم محمد ﷺ: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]، ويتقدم الخوف على الرجاء عندما يتعلق الأمر بالذات، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، حيث ينبغي أن يتقدّم العلم بالخوف قبل العلم بالرجاء، ولكن عند دعوة الآخرين يتغير الترتيب، ولذلك وصف الله الأنبياء فقال: [مُبشِّرين ومُنذرين]، فقدّم التبشير على الإنذار، ولا يزال هذا الترتيب هو الأصل في أداء الدّعاة الوُعاة في كل زمان ومكان!

• هدايةُ التّخَصُّص:

من عجائب العظمة القرآنية امتلاك النَّص الواحد لمعاني غير متناهية تلبي حاجات الناس في مختلف العصور والأماكن، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢ - ٣]، وقوله تعالى على لسان موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، حيث يدخل في ظلال كلمة هدى هداية كل إنسان إلى موهبة تجعل تَخَصُّصه فيها وتَعلّمه لها أمراً يسيراً وفاعلاً ويكون آية من آيات الله، فلو أخذنا مدينة سكانها مليون نسمة مثلاً، واتخذنا ما من شأنه اكتشاف مواهب أبنائها الحقيقية وتنميتها بالعلم وتسليحها بالخبرة؛ سنجد أن في هذا المليون ما يكفيهم من الأطباء والمهندسين وعلماء الشرع والوعاظ والميكانيكيين والتجار والسياسيين والفنانين والأدباء وكذا سائر المهن والتخصصات في مختلف حقول صناعة الحياة.

* * *

عواملُ النّجاح

• تركيزُ الطاقة:

من أهم عوامل التغيير الناجح تركيز الطاقة في المجال ذي العلاقة، مع استثمار السبب الأنسب والأمثل لتحقيق الهدف المنشود.

وفي قصة ذي القرنين درس بليغ بهذا الشأن، فقد قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥]، فإن الله قد أتاه من كل شيء سبباً، لكنه بذكائه الوقاد ومعرفته بالواقع وبالظروف التي يعيش فيها اختار السبب الأنسب في كل مجال: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾، ولم يسمح لطاقته بالتبدد في كل الطرق والتشتت في سائر الأسباب.

ولتأكيد هذا المعنى نُذكِّر بأن السبب في اللغة العربية هو الحبل، فاستُعير لكل ما تُجتلب به الأشياء، فالحبل أنسب ما يكون لجلب حزمة من الحطب أو الزرع أو الحشائش، ولكن هل ينفع لجلب عدد من التفاح أو البرتقال مثلاً ؟!

ولو أجلنا أنظارنا في الواقع لوجدنا أعداداً من دعاة التغيير ما زالوا دائبين جاهدين في محاولة جلب التفاح للمسلمين بذات الحبال التي يجلبون بها الحطب!

• الإعداد الرّباني:

لما كانت رسالة موسى مزدوجة في جبهتي محاربة الطغيان عند الفراعنة وتجفيف منابع الشرك عند بني إسرائيل؛ فقد أعدّه الله بعناية بالغة، شملت هذه العناية حتى السِّنّ نفسه، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]، فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن بلوغ الأشد يكون في الثالثة والثلاثين، ولذلك قال عن يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ونلاحظ كيف اتفقت الآيتان في كل شيء، غير أن آية موسى فيها كلمة

زائدة وهي كلمة: ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]، فقد ذهب المفسرون إلى أن الاستواء يكون في الأربعين من العمر، بمعنى أن يوسف بعث وعمره ٣٣ سنة وبعث موسى وعمره ٤٠ سنة، وهذه السبع السنوات الزائدة لا شك أنها كانت عامرة بعوامل وحوادث الإعداد وزاخرة بالكثير من الخبرات التي أهّلته لتحمل أعباء الرسالة المزدوجة في مواجهة الطغيان الفرعوني والانحراف الإسرائيلي.

• دقَّةُ التشخيص:

في تشخيص القرآن للنفوس يعطينا درساً بليغاً وبالغاً في وجوب التدقيق وعدم إهمال أي مفردة مهما كانت صغيرة، فلقد قال تعالى عن صنف من اليهود: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، حيث يثبت الله لهم الكفر بحكم أنهم سبّوا الله وحرّفوا آياته واشتروا بها ثمناً قليلاً من الإيمان.

ومع أن الإيمان لا يتجزأ ولا يتبعض إلا أنه أشار إلى أنهم يؤمنون قليلاً، وذلك من أجل أن يُعلّمنا درساً في الموضوعية والإنصاف، وفي عدم الاكتفاء بالنظرة الكلية وضرورة التدقيق في النظر إلى الجزئيات.

• إثمار العلم:

من المَحكّات التي يظهر فيها علم المرء ويبرز مدى فقهه لدينه، قدرته على الموائمة بين استيفاء الأخذ بالأسباب وبين كمال التوكل.

نتعلم هذا الدرس من يعقوب عليه السلام الذي وصفه الله تعالى فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]، فقد شهد له الله بكمال التعلم من الأسباب والظواهر والحوادث التي بثّها سبحانه حوله، وذلك بعد أن أورد ما قاله لأبنائه: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]، فقد أمرهم بالتسبُّب المتمثل بالدخول من أبواب متفرقة، ووجّههم إلى التوكّل

من خلال إعادة كل شيء إلى الله، حيث أعلن توكله على الله ودعا كل المؤمنين للتوكل عليه تعالى.

* * *

فهرس المحتويات

مقاصدُ القصص ١١

أفياءُ الأنبياء ١٣

أنْداءُ الأنبياء ١٥

خلائقُ الأنبياء ١٧

ريَاحينُ نوح ١٩

لَطائفُ نوحية ٢١

نَفَحاتٌ نُوحية ٢٣

هدايا هود ٢٧

خلالُ الخليل ٢٩

أسْبابٌ إبراهيمية ٣١

دعَواتٌ إبراهيمية ٣٣

مآثِرُ لُوط ٣٥

دروسٌ يعقوبية ٣٧

سَجايا يُوسفية ٣٩

سنابلُ يُوسفية ٤٢

نَوائلُ يَعقوبية ٤٤

العُروجُ اليُوسفيّ ٤٦

عَطايَا يُوسُفيّة ٤٨

أكاذيبُ إخوة يوسف ٥٠
آفاقٌ يُوسفية ٥٢
علَلُ إخوةِ يوسف ٥٤
موسى الإنسان ٥٦
وسائلُ مُوسَى ٥٨
سبائكٌ موسويّة ٦٠
الإحسانُ اليُوسفي ٦٢
دروسٌ يوسفية ٦٤
نَفائسُ يُونس ٦٦
أنبياءُ في القُصور ٦٨
رَحَمَاتُ المُصطفى ٧٠
قبائحُ الشّاذّين ٧٢
آدابُ الخُلَّة ٧٤
سجايا المصطفى ٧٦
فوائد إبليسية ٧٨
دُروسٌ إبليسية ٨٠
مَسالِكُ إبليس ٨٢
خِلَالُ الرِّجال ٨٤
غوائلُ الطُّغاة ٨٦
غَرائبُ المُشركين ٨٨

كُنوزُ اللاشخصانية ٩٠
قَلائدُ المتقين ٩٢
الجَزاءُ الوِفَاق ٩٤
سبائك يُونسية ٩٦
نَوَائلُ القرآن ٩٨
قانونُ النِّسْبيّة ١٠٠
سَبائِكُ النِّسْبيّة ١٠٢
نِسْبِيّاتٌ قرآنية ١٠٤
أَفْيَاءُ التّفاؤل ١٠٦
سَجَايا قيادية ١٠٨
خِصالُ القائد ١١٠
أَعْمِدَةُ الفَرْعَنة ١١٢
طبائعُ الفَراعنة ١١٥
اسْتِعلاءُ الفَراعنة ١١٧
هَواجِسُ الجَبّارين ١١٩
سَجايا ملكة سبأ ١٢١
بَيْدَرُ العَواطِف ١٢٣
مَعاقدُ القادة ١٢٥
غيَاهِبُ العصيان ١٢٧
صحائفُ المسؤولية ١٢٩

عِلَلُ التَّديُّن ١٣١
أرواحُ الأمم ١٣٣
رياءُ المنافقين ١٣٥
معارجُ الدعاء ١٣٧
مَصَاعدُ الدُّعاء ١٣٩
دُروسٌ دُعائية ١٤١
مَراقي الصلاة ١٤٢
تِريَاقُ التَّوبة ١٤٤
مَشاعلُ الصلاة ١٤٦
مَطالِبُ العُروج ١٤٨
دُروسٌ سَماوية ١٥٠
دَرَجاتُ الرِّفْعة ١٥٢
تَحليقُ الأَوّابين ١٥٤
نَفائِسُ مُوسى ١٥٧
التّحَصُّن من الشيطان ١٥٩
مَجَامعُ الذّات ١٦١
وَقائعُ الحياة ١٦٣
مَصارِعُ الظالمين ١٦٦
تَسفُّل الآدميّين ١٦٨
صناعةُ الفَراعنة ١٧٠

آفَاتُ الفراعنة ١٧٢
قَلائدُ الاقتداء ١٧٤
عُتوٌّ عَادٍ ١٧٦
دُروسُ السَّحَرة ١٧٨
أسْرارُ الغابرين ١٨٠
دُروسٌ داوُودية ١٨٢
يَقينُ الأنبياء ١٨٤
هُمومُ الأُمَّة ١٨٦
قَوانينُ السّماء ١٨٩
سُنَنُ الأوّلين ١٩١
آفاتُ المُتديِّنين ١٩٣
دَوَاهي اليهود ١٩٥
مَخاطرُ السُّكوت ١٩٧
آفاتُ الطّالحين ١٩٩
نَوَائلُ التّوفيق ٢٠١
بَصائرُ دعية ٢٠٣
عواملُ النّجاح ٢٠٥

* * *

دار البشير